إقرأ

نشيد الكروان

طاهر الطناحي

دار المعارف بمصر

٦

تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان

دار المعارف بمصر

نشيد الكروان

طاهر أحمد الطناحى

نشيد الكروان

اقرأ ٣٠٢
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٠٢ – فبراير سنة ١٩٦٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

الحياة قصص

الحياة الإنسانية منذ نشأت على الأرض سلسلة من القصص القصيرة والطويلة والضاحكة والباكية ، والغريبة ذات الخطر ، والعجيبة ذات العبر . ولقد بدأت حياة آدم وحواء بقصة الشجرة التى أخرجتهما من الجنة ، وأصيبا بمأساة هابيل وقابيل بل كان وجودهما قصة البشرية الكبرى . . . وما من عصر من العصور إلا كان زاخراً بالقصص ، وما من كتاب مقدس إلا جمع ألواناً كثيرة من قصص الحياة ، وما من تاريخ إلا كان مجموعة من قصص الأفراد والجماعات ، وما من خيالات قصصية ، ومؤلفات روائية إلا كانت مستمدة مما يعيش الناس فيه من أحداث وطباع وأخلاق وعادات ، ومسرات وأحزان .

ولعل القصة هى أقدم ألوان الأدب ، لأنها تصور حياة الناس وأسلوب معيشتهم وتكشف عن ميولهم ، وما يقدسونه من مبادئ ، ويسيرون عليه من عادات . وليست قصة « أوبا أونر » أحد كهنة الفراعنة وسحرتها إلا لونا من هذا الأدب الذى يتضمن العظة والعبرة ، وينقل لنا جانباً من حياة الأقدمين . . فقد كانت زوجة هذا الكاهن فتاة لعوباً عشقت فتى جميلا كان يتردد على حديقتها ، ويستحم بحيرة هذه الحديقة . وكان البستانى يتغافل عنه لأن زوجة الكاهن تصله بصلات ، وترضيه بمكافآت . وذات يوم قصر فى واجبه فنهرته وأنذرته بالطرد إذا عاد لفعلته ، فأسرها فى نفسه ، وحلف ليفشين سرها . . وكان « أوبا أونر » مسافراً مع الملك

« نب — كا » فلما عاد أنبأه البستانى نبأ هذا الفتى وتردده على الحديقة ، فغضب الكاهن ، وعزم على الفتك بغريمه ، فصنع تمساحاً من الشمع ، وقرأ عليه بعض تعاويذه ، وقال له : « كل من أتى إلى هذه البحيرة فاقبض عليه » ثم أعطى البستانى التمساح ، وقال له : « إذا جاء الفتى ونزل البحيرة ، فارم التمساح فيها » !

فلما جاء الفتى كعادته ، ونزل البحيرة ، رمى البستانى التمساح الشمعى ، فانقلب تمساحاً حيًّا كبيراً ، فقبض على الفتى بفكيه ، ولم يستطع الإفلات منه ، وأقبل الكاهن فرآه على هذه الحال ، فذهب توًّا إلى الملك ، وأطلعه على هذه الحيلة ، فحضر الملك « نب — كا » ووزراؤه ، وأبصروا الفتى فصرخ وهو فى فم التمساح ، فدهشوا ، ثم أمر الكاهن التمساح أن يترك الفتى فتركه وعاد تمساحاً من الشمع ، فعجب الملك ثم أمره أن يعيده حيًّا ، فأعاده ، فقال الملك : « أيها التمساح خذ فريستك » فهجم على الفتى ، وحمله بين فكيه ، وغاب به فى جوف البحيرة !

تلك قصة من قصص أوراق البردى التى حصلت عليها « مس وستكار » والمحفوظة الآن بمتحف برلين ، وهى تحكى لنا جانباً من حياة الفراعنة ، وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم ، كما تصور الخيانة والغيرة ، والانتقام والدفاع عن الشرف وعقاب المجرم الخارج على نظام الجماعة . وهى فى الوقت نفسه قصة من قصص الحياة تتناول مشكلا من أقدم مشاكل المجتمع ، وهو الحب الآثم والتنافس العاطفى حول المرأة ! . .

وقد كانت القصة فى الماضى تروى للعبرة والتسلية ، وما زالت العبرة والتسلية عنصراً هامًّا فى القصة ، ولكنها فى العصر الحديث أصبحت رسالتها لا تقتصر على ذلك ، بل تحوى دراسات ممتعة للأشخاص والحوادث . وتحلل بأسلوبها الفنى النواحى النفسية ، وتهدف إلى حل مشكلة من المشاكل الاجتماعية ، وتتضمن رياضة ذهنية ، كما تتضمن

طائفة من تجارب الدنيا ، ودروس الحياة ، وهى من أجل ذلك فن يفيد الناشئة. وقد عنيت الأمم الراقية بدراسة القصة فى مدارسها وجعلها مادة من مواد الدراسة ؛ وقد ذكرها أفلاطون فى جمهوريته حين تكلم عن تربية طبقة الحكام ، كما أوصى سقراط بها حينما دار الحوار بينه وبين ديمنتس عن تربية الأطفال إذ قال سقراط :

— « إنى أفضل أن نضم القصص إلى الموسيقى فى تربية الأطفال . وهناك نوعان من القصص أحدهما وهمى والآخر حقيقى ، ولنبدأ بالوهمى ، على أن الوهمى يوصف بذلك ، ولكن مغزاه حقيقى ، فلنرو للأطفال الأساطير قبل تمرينهم على الألعاب الرياضية ، ويجب علينا أن نشرف على واضعى الأساطير ، واختيار أصلحها ونبذ ما لا يصلح » .

فالقصة لها شأنها فى غرس الفضائل الإنسانية فى الأطفال ، واستغلال ميولهم إلى المحاكاة فى تصوير البطولة والشجاعة والوطنية وغيرها من المثل العليا . وقد كان لكتاب كليلة ودمنة فى اللغة العربية ، وقصص جان دولافونتين فى اللغة الفرنسية أثرهما فى التربية ، على الرغم من أن أقاصيصهما تروى عن الحيوانات ، فإن فى حياة الحيوان عبراً كثيرة ، ومعارف شتى . وقد قال سليمان الحكيم للكسلان : « عليك بالتعلم فى مدرسة النمل » !

والقصة بمعناها القديم موجودة فى الأدب العربى ، كما هى موجودة فى سائر الآداب . وهو زاخر بالقصص الأدبية ، والتاريخية ، والاجتماعية والفكاهية . ولكنها بمعناها الحديث ترجع إلى نحو تسعين عاماً . وقد ظن بعض الكتاب أن مصر كانت خالية من القصة الحديثة والمسرحية فى أسلوبها العصرى ، ولم تظهر إلا منذ خمسين عاماً فى إحدى المحاولات ، ولكن الواقع أن القصة العربية الحديثة يرجع عهدها إلى سنة ١٨٦٨ وهى السنة التى تأسست فيها دار الأوبرا ، فقد ألف المرحوم محمد عثمان جلال فى نحو هذا العام أو بعده بقليل مسرحية « المخدوعين » التى مثلت فى

الأوبرا ، فكان أول رائد للمسرحية العربية ، ثم ترجم رواية « ترتوف » لموليير ، وتصرف فيها تصرفاً جعلها ملائمة للحياة الشرقية ، ومثلت عدة مرات باسم «الشيخ متلوف » وترجم قصة « بول وفرجيني » بأسلوب مسجع قبل أن يترجمها المنفلوطي بعدة سنوات ، كما ترجم قصص لافونتين بالشعر العربي . وألف قصصاً شعرية قصيرة تتضمن كل منها عبرة أخلاقية أو عظة اجتماعية . ونذكر من ذلك قصة « الصياد الجبان » :

وحكوا أن صائداً راح يوماً ... للخلا في مراتع الغزلان
فرآه الحطاب قال له ارجع ... ها هنا السبع شعلة النيران
قال : ما السبع إنما هو قط ... حكمه سائر على الفيران
أنا لا أرهب الوحوش وعندي ... في يميني صفائح اللبناني
وعلى ساعدي كنانة نبل ... وكلابي حولي وتحتي حصاني
ثم ما تم القصيدة حتى ... جاءه السبع بغتة في المكان
فجرى بالحصان منه وولى ... خائفاً هارباً لدار الأمان
« كل من يدعي بما ليس فيه ... كذبته شواهد الامتحان »

وقد ألف وهبي تادرس ناظر مدرسة السقايين القبطية سنة ١٨٨٥ مسرحية يوسف الصديق وقد مثلها طلبة هذه المدرسة على مسرح الأوبرا لمساعدة الجمعية الخيرية القبطية ، وفي سنة ١٨٩٧ ألف أحمد شوقي رواية « عذراء الهند » وهي رواية تاريخية ، ولكن معظمها لا يستمد من التاريخ الصحيح ، وقبل ذلك بنحو سبع سنوات ألف جورجي زيدان المملوك الشارد ، واستبداد المماليك ، وأسير المتمهدي ، وجهاد المحبين ، ثم بدأ ينشر في الهلال روايات تاريخ الإسلام ، وبعد هذا المجهود الضخم الذي قام به مؤسس الهلال ظهرت رواية زينب للدكتور محمد حسين

هيكل ، ثم روايات المنفلوطى مؤلفة ومترجمة . وبهذا الفتح ظهر لون جديد فى كتابة القصة العربية الطويلة والقصيرة بطريقة شائقة وأسلوب فنى حديث .

وهذه أربع عشرة قصة قصيرة ، أقدمها للقراء بأسلوب فنى جديد ، بعضها من رياض الأدب ، وبعضها من التاريخ ، والبعض الثالث من وقائع الحياة . وقد سميتها باسم القصة الأولى منها . وذلك من إطلاق اسم الجزء على الكل كما يقول علماء البيان .

وهى تهدف إلى الثقافة الصالحة ، والتسلية النافعة ، وتصور الحياة الإنسانية الخالدة ، وتعالج طائفة من أفراحها ومآسيها ، وبسماتها ودموعها ، وما فيها من حب وكراهية ، ورحمة وقسوة ، وزهد وطمع ، ولذة وألم ، ونجاح وفشل ، ويأس وأمل ، وتسامح وانتقام ، وأمثلة الشجاعة والبطولة والإقدام . . !

طاهر الطناحى

نشيد الكروان

م يكن يعرف المرض من قبل ، ولم يعرف المرض إليه سبيلا ، وكان يدافع الأيام بلا حذر ، ويغالب الصعاب بلا وهن ، وأقصى ما يصاب به زكام يعتريه عاماً بعد عام ، أو فى كل عام مرة . وهو إلى ذلك خفيف الوطأة عليه لا يحسب له حساباً ، ولا يحول بينه وبين جهاد الحياة .

وكان لا ينفك يتحدث إلى زملائه أنه لم يصب قط بمرض إلا فى الخامسة من عمره حين أصيب بالتيفود ، وأنه منذ ذلك الحين صار له من المناعة ما تغلب به على كل داء. وكان بعض زملائه يفاكهونه ويلحون فى الفكاهة ، ويقترحون أن يقيم حفلا للزكام كل عام . . وكان هو يفاكههم ويعدهم بأنه سيقيم حفلا لا يدعو إليه إلا المزكومين . . !

وكان يؤمن بالقدر ولا يخشى المرضى بالحميات ، ويزاحم بين المزاحمين فى الطريق والسيارات، ويتعرض للحر والبرد، ولا يعبأ بالعدوى، أو يكرب نفسه بالهموم ويكرر قول أبى العلاء :

أيها المهمومُ يوماً لا تُهَمّ إن تكن تُقدر لك الحمى تُحمّ

وهو لا يؤمن بالأدوية والعقاقير ، وقد قرأ لابن سينا « أن الطبيعة تداوى نفسها » ، وللعالم الإنجليزى الدكتور سميث « أن الأدوية لا تشفى أى داء ، بل الذى يشفيه هى الخاصة الطبيعية للجسم » . وهو يعنى قوة الجسم . . !

ومن قبل قرأ للدكتور ستيفنس الأمريكى أحد أساتذة جامعة نيويورك: « أنه كلما تقدم سن الأطباء قل اعتقادهم فى تأثير الأدوية ، وزادت ثقتهم فى قوى الطبيعة ، وأن العلاج لا يشفى المصاب ، ولكن الذى يشفيه هو القوة الحيوية الموجودة فى جسمه » .

وإذن فهو يتذرع بهذه القوة الحيوية ، فقد أنقذته من الحمى فى طفولته وجنبته الأمراض طول حياته ، فعاش صحيح البدن سعيداً مسروراً . وسعادة الاستمتاع بالصحة لا تعدلها سعادة ، والسرور بها لا يعدله سرور ، وقد قال ابن المقفع : « ليس من سرور الدنيا ولا سعادة الحياة شىء يعدل صحة الأبدان ! »

* * *

وما كان صاحبنا يفكر فى المرض والمرضى ، لأن الصحة تنسى الآلام ، ولأن القوى لا يشعر بما يعانيه الضعيف ، ولأن السائر المغذ فى ركب الحياة لا يعبأ بمن يسقط فى مفترق الطريق !

وزاره يوماً محترف للتنجيم وقراءة الكف ، وجعل يحدثه عن خواص هذه القراءة وكيف أنها تكشف عن الماضى والحاضر ، وتنبئ بالمستقبل . وصاحبنا يستمع إليه ، ويبتسم ، لأنه لا يعتقد بالتنجيم ولا يدين بالكشف عن الغيب ، ويتمثل بقول القائل :

ينجمون وما يدرون لو سئلوا عن البعوضة أنّى منهم تقف

ولكنه لم يتردد فى بسط كفه حين دعاه هذا المنجم إلى بسطها ليقرأ فيها مستقبله ، بل لعله اشتاق إلى معرفة ما تحويه سطورها المتساوية والمتعرجة ، والصاعدة والنازلة ، والتى يقول عنها المنجم إن لكل منها معنى وإشارة تكشف عن المستقبل ، ولا يدرك قراءتها إلا الراسخون فى هذا العلم . وهذا المنجم من الراسخين فيه كما يقول وهو من مشاهير قراء الكف فى القاهرة ! !

وحدق المنجم فى كفه قليلا ، ثم قلبها ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، وجعل يقرأ خطوطها خطًّا خطا حتى جاء إلى « خط المرض » ، فزعم له أنه سيمرض مرضاً طويلا وقد يكون هذا المرض بعد عام أو بعد أشهر معدودات لأن خطه قد تثنى وانقبض وأنذر بقربه !

واهتزت نفس صاحبنا هذه المرة ، وشعر وقتئذ بشىء لم يكن يشعر به من قبل — شعر أن حادثاً مؤلماً قد يقع له ، ويعكر صفو حياته ، وتذكر أنه منذ مدة تنبأت له منجمة تدعى «الشيخة زبيدة» بهذه النبوءة نفسها فلم يصدقها ، ولم يعبأ بها. ولكن ما له يشعر الآن هذا الشعور الغريب وهو لا يصدق المنجمين ؟ !

وأوى فى المساء إلى فراشه ، فرأى أباه المتوفى فى ثياب قاتمة وقد جلس إلى سريره صامتاً واجماً فى حزن وألم ، فهب من نومه مذعوراً ، وجعل يفكر — فى اكتئاب — فى هذه الرؤيا ، وكيف تتفق ونبوءة المنجم ، ولماذا يرى أباه على هذه الصورة المحزنة ، ولا يراه فى صورة أخرى ؟ ثم لماذا يرى نفسه مريضاً مستلقياً لا يستطيع حراكاً ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ؟ !

« إننى سأمرض عما قريب . . لا شك فى ذلك . . وإلا فلماذا وافقت النبوءة الأحلام ، وشابه ما سمعته فى اليقظة ما رأيته فى المنام ؟ »

* * *

يالله ! . . ما أضعف الإنسان ! وما أوهن إرادته حين تسيطر عليه الأوهام ! ما هذا الذى انتاب صاحبنا ، فأضاع ثقته بنفسه ، وإيمانه بقوة بنيته ؟ ما باله يخشى المرض ويتوقعه وتؤرقه هذه النبوءة ؟ ألم يؤمن بالقدر ، وبأن كل شىء مقدور على الإنسان ، وقد يمرض وقد لا يمرض ، فلماذا يرجح الأولى على الثانية ، ولماذا يتشاءم بما تأتى به الأيام . وقد تأتى الأيام بالصحة لا بالمرض ؟

وخالجه شعور قوى بأنه سيمرض عما قريب ، وزاد فى هذا الشعور ما كان يقرؤه فى ذلك الحين لطائفة من المتشائمين ، وجعل يكرر من من أقوال أحدهم :

يا صاحبىّ اللذين استشفيا لضنّى ... بمن تلوذان أو ممن تعوذان
بقراط عمرى وجالينوس ما سلما ... والحق أنهما فى الطب فذان

* * *

وفجأة شعر صاحبنا بالألم يداعب رأسه ، ثم تكون « حمى » .

« إلى المستشفى ! . . إلى المستشفى ! . . إن هذا الداء لا يعالج فى البيت ! ! »

هذا ما قاله الطبيب ، ويسمع أقرباؤه هذه الكلمة ، فيشفقون ، ويرجون أن يعالج فى البيت ، فيجيب الطبيب : « كلا ، إن البيوت لم توجد للعلاج والتمريض ! »

وقد صدق الطبيب ، فإن الذين يعالجون مرضاهم فى بيوتهم إنما يجنون عليهم وعلى سكانها جناية كبرى ، بل قد يدفعون بهم إلى أفواه المقابر ، ومن الغريب أن هذه الجريمة الصحية لا تلقى عناية من القانون !

ويرضى صاحبنا بالعلاج فى المستشفى حيث يتوافر فيه من الوسائل ما لا يتوافر فى البيوت ، وحيث يعنى به عدد من الأطباء والممرضات لا يتاحون لأى مريض فى برجه العاجى ، أو فى قصره المنيف .

وتكون ساعة مروعة ، ويكون مشهد مهيب : ها هوذا يجمع أولاده ليودعهم ويغلبه الأسى ، فيقول : « يا لله ، هل أعود سالماً ، أو لا أعود إلى هذه الفراخ الزغب الصغار » ! إن الحياة أقل من أن يأسى عليها الإنسان ، إلا إذا كان فيها أحياء وراء الحى يحيون بحياته ويموتون بموته . . !

وتحضر عربة المستشفى ، ويصعد الموكلون بها وهم يحملون الناقلة إلى حيث يقيم . . ها هم أولاء يلفونه فى أغطية ، ثم يحملونه على أكتافهم

نازلين ، وها هم أولاء يجتازون به باب المنزل إلى الحديقة ملفوفاً محمولا كما يحمل الموتى . فلا يكادون يخرجون به حتى يفاجئ هذا المنظر المؤثر عدداً من السيدات المرتديات ملابس العرس فى بيت جاره الذى يحتفل بزفاف بنته فى ذلك اليوم . وقد حضرن لمرافقة عروسهن ابنة هذا الجار إلى بيت زوجها . فقد كان مقرراً أن تكون حفلة العرس النهارية مقصورة على آل العروسين فى غير ضجة ولا إعلان ، وصادف — على غير علم — أن يكون خروج العروس إلى زوجها فى تلك الساعة التى خرج فيها صاحبنا محمولا إلى المستشفى .

ما أقسى المقادير ، وما أعجب المصادفات . . بل ما أسوأها . . إنها مآساة هازلة من مهازل الدنيا التى لا تنتهى ، وأعجوبة من أعاجيب الحياة !

لقد سكت آل العروسين وكفوا عن مظاهر الابتهاج . وانطلقت العيون بالدموع من كل مكان ، وكأنما كان يشهد صاحبنا جنازته حتى كاد يشك فى نفسه ، هل هو فى يقظة أو منام ، وهل هو حى أو ميت ، وهل يحمل إلى « الحميات » أو إلى مقابر الأموات ؟

* * *

وتصل العربة إلى المستشفى فى المساء ، فيرى وجوهاً غير الوجوه التى تعود أن يراها ، وأزياء غير الأزياء التى كان يعرفها ، وحياة جديدة فى كل شىء ، لقد ترك عالم الأصحاء وانتقل إلى عالم المرضى . . إنه الآن مريض ، وهو لا يدعى باسمه من الأطباء والممرضات بل بالرقم ٨ و بالغرفة رقم ٨ و بالمريض رقم ٨ وكأنما المرض قد ذهب باسمه وشخصه كما ذهب بصحته وحريته . . ! !

ويمر به سرب من طائر الكروان الذى يحبه منذ كان صبياً ، ويستمع إلى نشيده ، وهو سابح فى الجو فى بهجة وحرية ، فيبتهج لهذا الطائر ،

ولما هو فيه من صحة وحرية ، ولكنه لا يلبث أن يأسى لحظة ، ويحزن لقدره وسجنه بين المرضى والمستشفى . . !

إن المرض سجن أليم تفرضه المقادير على المرضى . . إن المساجين الذين حكم عليهم القضاء العادل بالسجن والتعذيب لأخف حالا من المرضى . . إنهم لم يسلبوا الصحة حين سلبوا الحرية . . إنهم يقومون ويقعدون ، ويأكلون ويشربون ، ويتنسمون نسيم العافية على الرغم من ظلام السجون . وحسبهم ذلك فى نظر المرضى الذين لو وازنوا بين جبل من ذهب فى علة، وخطوة من الخطوات فى عافية لرجحت عندهم هذه الخطوة بما فيها من سعادة لا تقدر بمال .

* * *

وينام صاحبنا ساعة فى غرفته الجديدة ، ثم يستيقظ ، فلا يذكر شيئاً من هموم الحياة إلا هؤلاء الفراخ الزغب الصغار الذين خلفهم وراءه ، فيعاوده الأسى ، ويسأل ممرضته : « ألا يمكن أن يزورنى أولادى مع الزائرين » ، وتجيب الممرضة : « ذلك غير ممكن . . إن نظام المستشفى يحرم دخول الأطفال » . .

وتسكت الممرضة ، ويسكت المريض . وهنا يسمع صوت أنين من غرفة مجاورة ، ويسأل صاحبنا الممرضة عن هذا الأنين، فتجيب : إنه لمريض فى حالة خطرة ، وقد أشرف على النهاية ، فيتوجس صاحبنا ويبتئس ، ويسهر ليلته ذاكراً أطفاله حتى الصباح .

وتدخل الممرضة مع شروق الشمس فى صباح اليوم التالى ، فيسألها عن جاره المريض . فتجيب إنه فى سكرات الموت ، وإنه فى غمرة هذه السكرات لم ينس أطفاله طول الليل ، فقد كان يناجيهم ، ثم يناديهم بأسمائهم واحداً واحداً — وكأنما هم واقفون أمامه — وكان يحدثهم ، أو يخيل إليه أنه يحدثهم فرداً فرداً ، ويبذل لهم من عطفه وحنانه فى عبارات

مؤلمة ، وصوت مؤثر . وكأنما حين حرمه نظام المستشفى أن يراهم فى يقظته شاء الله أن يراهم بروحه قبل أن يفارق هذه الحياة ويصعد إلى السماء !

ويذرف صاحبنا عبرة من عبراته على هذا المسكين الذى ودع الحياة وداعه الألم . . ويتملكه الوجد ، ويحدث نفسه فى اكتئاب :

« هل يقدر له أن يودع الحياة هذا الوداع الفاجع ، وأن ينتهى إلى هذه النهاية القاسية ، فلا يرى أولاده إلا فى سكرات الموت خيالا وأوهاماً ؟! »

ويفاجئه صديقه الطبيب فى هذه الحال ، فيجد الدمع يترقرق فى عينيه ، فيحسب أنه يستوحش من المستشفى ، ويثقل بالمرض ، ولا يستطيع له صبراً ، فيقول له :

« مالك تبكى . . هل خالجك الوهن ، وأين إرادتك القوية التى حدثتنى عنها ، وما لك تيأس وتجبن ، وحالك لا تدعو إلى اليأس والجبن ؟! »

فيجيب : « كلا . . وهل عهدتنى يوماً جباناً ؟ ! »

ويمسح عينيه ، ويخفى ما عنده من أسى وأشجان . .

* * *

ويشتد المرض على صاحبنا شيئاً فشيئاً ، حتى يدنو من الموت أو يكاد . ويقف الأطباء حوله يكشفون ، ويبحثون عن الداء حائرين . . إنه أصبح محطم القوى ، منهوك الجسم ، يخفق قلبه خفقاناً سريعاً كأنما هو فى جناحى طائر . ولكن ما بال التحليل لا يكشف عن نوع المرض ، وما بال الأطباء مهمومين ، وما بالهم يشيرون ويتهامسون ؟ !

وينسى صاحبنا فى شدته كل شىء فى الدنيا حتى أولاده . . فما عاد يفكر فيهم حين صار يفكر فى « الله » ، وينعم بهذا الجمال الأعلى ، ويطمئن إليه ، ويتوكل عليه . . ! !

ويدنو من التصوف ، بل يصير متصوفاً ، فينظر إلى الحياة الدنيا وما فيها من آمال وأطماع ، فتصغر أمامه ويحدث نفسه :

ما أتفه الإنسان . . علام كل هذه المتاعب . . ولماذا هذا الجهاد الشاق . . وهلا أراح الإنسان واستراح. وتمتع بالحياة الهادئة القانعة فى ظلال حب الله والتفكير فى ملكوته ؟ !

نعم أصبح صاحبنا متصوفاً . . أو قل إنه عاد إلى التصوف ، فقد كان فى مقتبل حياته يعجب بالمتصوفين ، ويسلك مسلكهم فى الإخلاص لله ، والتجرد عما سواه ، ويصعد بروحه إلى عالم التقديس ، ويزهد فى متاع الدنيا ومشاغلها المادية يوم كان غير مسئول عن هذه المشاغل . . .

فلما شب وحاسبته الحياة جعل لها حساباً من نفسه ووقته وراحته ، وانغمر فيها ، وألهته الدنيا ، وأنسته التصوف والمتصوفين . بل لعله كان يستخف بهم حين رآهم يستخفون بالدنيا، وطالما أنكر أساليبهم فى تعذيب الجسد للوصول إلى صفاء الروح ، وطالما عجب لصبرهم الطويل على هذا العذاب ، فلما مرض وتعذب جسده بآلام المرض ، وعجز عن كل شيء ، انكشف عنه الحجاب ووجد فى العالم الأسمى نعيماً ونوراً ، وسراً مكنوناً لا يمكن الوصول إليه إلا بإرهاق الجسد . . والمرض أشد أنواع الإرهاق ، وهو جدير بأن يسمو بالروح إلى الله ، وقد سما بروحه إلى الله وطهره من أدران المادة، واغتبط لنفسه وزملائه المرضى حين أوصله المرض إلى هذا المدى العلوى العظيم . . ! !

* * *

وتغيرت نفسية صاحبنا ، فزال عنه ما كان يشعر به من تشاؤم ، وزايله ما كان يعتوره من يأس ، بل دب الأمل فى نفسه حين سما به المرض من المادة إلى الروح . . واطمأن طبيبه إلى هذه الحال الباسمة ، فقد كان من قبل يطلب إليه ألا يبتئس ، وألا ييأس وأن يهون على نفسه، فإن الصحة لا تدخل الغرفة التى يملؤها ظلام اليأس والعبوس وضعف الإيمان !

وفجأة يصمت صاحبنا فى سكون الليل ، وإذا الطائر المحبوب يقبل فى سربه ، مترنماً بنشيده . . فيحدث نفسه : هذا هو الكروان يزورنى الليلة . ما له غاب عنى طويلا ، وكان يؤنسنى كثيراً . إننى أتفاءل بأنغامه ، وأبتهج لتسبيحاته لخالق الكون . . نعم إننى أشعر الليلة بالتفاؤل والهدوء والاطمئنان . . إنه هدوء الإيمان .

وينام صاحبنا ، وقد طوى فى الحمى تسعين يوماً ، وكانت حرارته فى التاسعة والثلاثين . وأشفقت الممرضة من حرارته فأحضرت « طاقية الثلج » فأبى أن يضعها على رأسه وقال لها :

دعينى . . دعينى . . فما يغنينى الثلج ، وما يدفع عنى شيئاً ، ولست أخشى ما تشفقين منه ما دمت فى ظلال الله ، وما دمت أجد فى هذه الظلال برداً وسلاماً . . !

ثم حمله النوم بعد ساعة فرأى فى منامه شبحاً فى صورة شيخ مرتد بالملابس البيضاء يقف فى وسط الغرفة ثم يقترب منه رويداً رويداً . . ثم يمسح جسمه بيده من رأسه إلى قدميه ، ثم يهتف فى صوت هادئ كأنه التسبيح :

ذهبت الحمى . . ذهبت ، ولن تعود بعون الله وكريم فضله ورعايته . . !

ويردد الهاتف هذه العبارة فى صوت يسمعه وكان الليل قد انتصف ، فينهض صاحبنا من سريره فى خوف ممزوج بالبشر ، وقد شعر بأن شيئاً ثقيلا قد زال عنه وأحس بأن حرارته قد انخفضت إلى حالها الطبيعية . . ويدق الجرس ، فتدخل الممرضة مسرعة ، فيطلب إليها أن تقيس حرارته فتفعل ، ويجدها ٣٧ درجه ونصف الدرجة . . فيحدث نفسه ما هذا ؟ إن « الشبح » قد قال إن الحمى قد ذهبت فما بالها هكذا ؟ ! . . إنها ما زالت موجودة . . !

وتطفئ الممرضة النور ، وتخرج ، ويعود صاحبنا إلى نومه ، ويعود الشبح واقفاً فى وسط الغرفة ثم مقترباً منه مزيحاً الغطاء عنه ، ويكرر ما قاله مرة أخرى . ويهب صاحبنا خائفاً ، ويدق الجرس وتدخل الممرضة مسرعة وتسأله عما يريد ، فلا يتكلم وتقترب منه ، فتجده قد أغرق فى نومه فتعود لتطفئ النور وتخرج . . وبعد برهة تسمع الممرضة صوتاً فى « الغرفة رقم ٨ » يقول :

— نعم لن تعود . . لن تعود . . !

وتسرع الممرضة إلى حيث الصوت ، إنه صوت مريضها رقم ٨ ، ولكنها كانت تركته غارقاً فى نومه فما الذى أيقظه ، وما هذا الذى يهتف به يا ترى ، ومن ذا الذى يحدثه ، وهو فى الغرفة وحيداً .

وتكشف الغطاء عنه فيستيقظ وينهض قائلا : « هل كنت هنا قبل الآن ! » فتجيبه : « لا » ، فيحدثها عن الشبح وما قاله ، ويطلب إليها أن تقيس حرارته مرة ثانية فتجدها كما هى فى المرة الأولى ، فيقول فى نفسه : « ما هذا؟ ألم يقل الشبح ثلاثاً إن الحمى قد ذهبت ، ولن تعود ؟ أيمكن أن يكون ما رأيت الليلة أضغاث أحلام ؟ . . كلا إنها ليست كذلك ، بل هى رؤى صادقة . . وما هذا الشبح إلا روح كريم » .

ومضت ليلتان ثم كان مساء الليلة الثالثة ، وقد اطمأن صاحبنا إلى حاله وأيقن أن القدر يعاونه . وإنه لكذلك إذ دخل عليه فجأة متصوف صالح كان يعرفه وكانت الساعة العاشرة . فتعجب كيف تسوق المقادير هذا الرجل فى هذه الساعة المتأخرة من المساء ، وكيف يسمح له المستشفى بالدخول ، وهو إلى ذلك لم يره منذ عدة سنوات ، وقد نسى شخصه واسمه ، فما عاد يعرفه ، ثم تقدم المتصوف إليه فى هدوء ، وأخذ يمسح جسمه بيده من رأسه إلى قدميه كما فعل الشبح فى منامه ، وهو يقرأ بعض آيات القرآن الكريم ، ثم رفعها وهو يقول :

ذهبت الحمى . . ذهبت ولن تعود بعون الله ورعايته . . !

واهتزت نفس صاحبنا واقشعر بدنه، ثم خرج المتصوف مبشراً مودعاً، وجلس هو مفكراً حائراً بين رؤياه وما قاله الشبح فيها ، وبين قدوم هذا المتصوف فى هذه الساعة وما فعله وما قرأه وما بشر به ، وهو لم يكن يفكر فيه أو ينتظر قدومه وهو لم يزره من قبل فى خير أو شر ، وخالجه شعور عجيب ، ثم ذكر أن طبيبه الكبير قد وعده بالشفاء إذا استوفى العلاج ، وقد استوفى العلاج ، ولا بد أن الحمى ستزول ، أو أنها فى طريقها إلى الزوال .

ويزوره الطبيب فى الصباح : ويكشف ويبتهج ، ثم يقول :

تبارك الله . . إن القدر يعاوننا الآن . . إن الحرارة قد زالت تماماً . والحمى قد ذهبت . . !

فيجيب المريض :

نعم . ولن تعود . . !

أحمد اليتيم

فى ظلام الليل والناس نيام ، وقد هدأ كل شىء ، إلا قلب واحد كان يرتجف خوفاً وأسى ، ألقى مجهول طفلا جميلا حديث الولادة بجانب « السقاية » التى بناها السلطان أحمد بن طولون ليستقى منها الظامئون من أبناء السبيل ، ثم تركه وحيداً ملفوفاً فى ثوب خفيف لفاً يدل على الخوف والاضطراب . فأخذ الطفل يبكي ويصيح ، ولا أحد يأسى لبكائه ، ولا أم تهرع إليه شفقة منها وحناناً ، ولا أب يبحث عنه ، أو يفكر فى أن له فلذة من كبده قد لفها الليل فى أطوائه ووحشته ، وقد دفعته الخطيئة — دون ذنب جناه — إلى هذا الإهمال والحرمان ، وقذف به الحياء من المجتمع إلى هذه الوحدة بعيداً عن عطف الأم ورعاية الأب . ولسان حاله يقول :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

وقد مكث فى هذا الظلام الموحش ، وفى هذا المكان الذى خلا من كل شىء إلا من أنينه الحزين ، وهنينه الأليم ، حتى مطلع الفجر . ثم احمر وجه الصبح على بكائه ولهفته على صدر حنون يضمه ، وعلى ثدى يحنو إليه ويرضعه ، وعلى فراش يشفى آلامه ويوفر له فى طفولته العاجزة راحته ومنامه . ولكنه لم يجد هذا الصدر ، ولم يسعفه هذا الثدى ، ولا أوى إلى هذا الفراش ، فاشتد به البكاء والصراخ ، فتنبه إليه شرطة الحى حين بدءوا حياتهم اليومية فى الصباح . فأسرعوا إليه ، وحملوه إلى دار

الشرطة وأعلنوا عنه فى أحياء المدينة ، فلم يتقدم إليه أحد ، ولم يتحرك له إلا قلب واجف مكلوم يخفق من وراء ستار بعيداً عن الأهل . . بعيداً عن الشرطة . . هارباً من المجتمع !

وأبلغ الشرطة أمر هذا اللقيط إلى أحمد بن طولون ، وكان وقتئذ سلطاناً على مصر ، فأمر بإحضاره ، فوجده طفلا جميلا مسكيناً ، فاهتزت عاطفة الأبوة والرحمة فى قلبه ، فكلف بطانته بالعناية بتربيته فى قصره تربية حسنة ، والاهتمام برعايته حتى يشب رجلا نافعاً . . وقد سماه : « أحمد اليتيم » .

عاش « أحمد اليتيم » فى قصر ابن طولون محفوفاً بكل وسائل العناية والرعاية ، وقد تربى فى بلاطه تربية راقية ، وتهذب تهذيباً حسناً حتى أصبح شاباً مرموقاً بين رجال السلطان ، محبوباً عنده ، لما كان عليه من أخلاق كريمة ، وآداب عالية ، وذكاء وإخلاص عميق ، حتى فضله على كثير من خاصته وكبار رجال دولته !

ولما حضرت الوفاة السلطان أحمد بن طولون أوصى ابنه « خمارويه » بأحمد اليتيم خيراً ، وطلب منه أن يزداد فى الإحسان إليه ، وأن يديم رعايته له ، وينزله عنده على الدوام منزلة كريمة ، وكان خمارويه يعرف إخلاص « أحمد » ويحبه ويقدمه على الكثيرين ، فاستجاب لوصية والده ، ووعده بالقيام بعده بما يحب ويرضى . . !!

* * *

توفى السلطان ابن طولون بعد هذه الوصية ببضعة أيام ، وتولى خمارويه عرش مصر . . فكان أول ما اتجهت إليه نفسه تنفيذ وصية أبيه برًّا بما وعده به ، فأرسل إلى « أحمد اليتيم » يستدعيه إلى مجلسه ، فمضى على الأثر إجابة لأمر مولاه الجديد ، فلما مثل بين يديه ، قال له خمارويه :

يا أحمد أنت عندى بمنزلة قريبة ، أرعاك فيها كل الرعاية ،

ولكن عادتى أن آخذ العهد على كل رجل من رجالى ألا يخونني ، فاحلف على عهدى ألا تخون !

فحلف أحمد اليتيم كما أمر مولاه ، وعاهده على الأمانة والإخلاص . وبذلك اطمأن إليه خمارويه ، وأقامه على شئونه الخاصة ، وجعله متصرفاً فى بعض أمواله ، وصاحب الكلمة النافذة فى بطانته ، فقام أحمد اليتيم بوظيفته أحسن قيام ، فزاد ذلك من محبة خمارويه له ، واعتماده عليه فى أعماله . . !

وذات ليلة كان السلطان خمارويه فى مجلسه يتحدث مع بعض رجاله ، ويسمر معهم على عادته فى قصره . وكان يمسك فى سمره بسبحة من الكهرمان يحركها بأصابعه كلما نشط به الحديث . وبينما هو فى هذا المجلس إذ نظر ، فلم يجد سبحته بيده ، فتفقدها حوله ، ثم تذكر أنه نسيها فى إحدى غرف القصر الداخلية ، فأمر « أحمد اليتيم » أن يذهب إلى تلك الحجرة ليحملها إليه ، فنهض أحمد مسرعاً إلى الغرفة . . كما أمر سيده السلطان . .

سار أحمد متجهاً إلى الغرفة ، فر بغرفة أخرى ، فلمح على ضوئها شبحين يتغازلان ، فعرج عليها ، واقتحم الباب ، فوجد إحدى جوارى السلطان بين يدى شاب من الخدم ، فلما رآياه أسرع الخادم بالهرب ، وألقت الجارية وجهها على قدمى أحمد تتوسل إليه ألا يفضح أمرها لدى السلطان ، وعرضت نفسها عليه ثمناً لذلك ، فأجاب أحمد :

معاذ الله أن أخون مولاى ، وقد أخذ العهد على ، وأحسن إلى ! . .

ثم تركها ، وسار إلى الغرفة ، فحمل السبحة وانصرف إلى الأمير ، وقدمها إليه . . ورأى ألا ينغص عليه مجلسه ، ولا يحزنه بخبر هذه الجارية الخائنة ! . .

* * *

بقيت هذه الجارية المغامرة بعد هذه الحادثة غير مطمئنة ، لا يهنأ لها

عيش ، ولا يطيب لها مضجع ، وصارت تتوجس الشر ، وتخشى من أحمد أن يبلغ السلطان ما اقترفته من خيانة فى يوم من الأيام .

وحدث فى ذلك الحين أن السلطان خمارويه اشترى جارية بارعة الجمال ، فتن بها كثيراً ، وآثرها على حظاياه بحبه وإحسانه ، واشتغل بهواها عن سواها حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، بعد أن كان مشغوفاً بتلك الجارية الخائنة شغفاً كبيراً .

فلما أعرض السلطان عنها هيأ بالجارية الجديدة ، كبر ذلك عندها وأيقنت أن « أحمد اليتيم » إن لم يكن فضحها عنده ، فقد دس لها ، وصرفه عنها إلى هذه الجارية الجديدة التى كان لأحمد دور كبير فى تقديمها إلى السلطان ، وفى إغرائه بشرائها . . فقد كان هو الذى بعث رجاله ليستقدموا جارية جميلة يهديها إلى مولاه ، وهو الذى اختارها له من عدد الجوارى الحسان . . !

واشتد لذلك غيظ الجارية الخائنة المغامرة على أحمد ، فصممت على الانتقام ودبرت لأحمد مكيدة تقضى عليه ، ويذهب هو ضحيتها ، حتى تشفى حقدها ، وتطمئن على حياتها فى قصر السلطان . . فماذا تصنع ؟ !

دخلت ذات يوم على خمارويه ، وهى تبكى بكاء شديداً دهش له السلطان ، وسألها عن سبب بكائها ، فأفضت إليه بأن أحمد اليتيم راودها عن نفسها ، وألح عليها فى طلب الفاحشة ، وهددها بتدبير مؤامرة ضدها عند السلطان تسوقها إلى الموت ! ! ...

استشاط خمارويه غضباً حين سمع منها ما سمع وكانت أثيرة عنده ، ولها مكانتها فى قلبه ، فصمم على قتل أحمد بحيلة من حيل الملوك والسلاطين ، فاستحضر أحد بطانته ، وأسر إليه قائلا :

إذ أرسلت إليك إنساناً ، ومعه طبق من الذهب ، وقال لك : املأ هذا الطبق مسكاً ، فاقتله ، وضع رأسه فى الطبق ، وأرسله إلى مغطى !

دبر خمارويه هذا العقاب لأحمد جزاء خيانته التى زعمتها الجارية ، وأحضر ندماءه فى سمره ذات ليلة ، وجلس معهم ، وأحمد اليتيم واقف بين يديه ، ولم يدر من الأمر شيئاً . . وبينما هو كذلك . . إذ ناداه خمارويه قائلا :

يا أحمد ، خذ هذا الطبق ، وامض به إلى « فلان » وقل له : يقول لك السلطان املأ هذا الطبق مسكاً . . .

وصدع « أحمد اليتيم » بأمر مولاه ، وأخذ فى الذهاب إلى ذلك الشخص الذى عينه خمارويه . وبينما كان يسير فى طريقه إليه ، مر بطائفة من أصدقائه المغنين والندماء فى القصر فسألوه الجلوس معهم وألحوا عليه ، فأجاب : « أنا ماض إلى فلان فى حاجة للسلطان ، أمرنى بإحضارها فى هذا الطبق » فقالوا له : « أرسل من ينوب عنك فى إحضارها . واجلس معنا ريثما يأتى بها . . ثم تأخذها أنت منه لتحملها إلى السلطان » !

وافق أحمد اليتيم على هذا الرأى ، ودعا أحد الخدم الحاضرين ليقوم بالذهاب إلى ذلك الشخص ليحضر المسك ، فأسرع إلى تلبيته ذلك الخادم الخائن الذى وجده أحمد مع الجارية فى الغرفة ، وتناول الطبق منه وذهب به !

* * *

جلس أحمد بين الندماء فى انتظار المسك . . وحمل الخادم الطبق إلى ذلك الشخص الذى أوعز إليه السلطان بأن يقطع رأس حامله .. فلما وصل إليه وطلب منه أن يملأ الطبق مسكاً ، قبض عليه ، وضرب عنقه . ثم وضع رأسه فى الطبق ، وغطاه وأرسل به إلى خمارويه مع أحد خدمه . فلما رآه أحمد فى طريقه نهض من بين الندماء وتناوله منه وهو لا يعلم شيئاً عما حدث للخادم الخائن ، وذهب بالطبق إلى السلطان .

فلما رأى خمارويه أحمد مقبلا بالطبق دهش ، ثم كشف الطبق ،

فازدادت دهشته ، ودهش أحمد أيضاً مما رأى ، فسأله السلطان :

— ما هذا ؟ . . وكيف حدث ذلك ؟ !

فقص عليه أحمد قصة تخلفه مع الندماء فى طريقه لإحضار المسك ، وما كان من إرسال الطبق مع هذا الخادم . فقال له السلطان :

— أتعرف لهذا الخادم خبراً يستوجب به ما جرى له بيد القدر ؟

فقال أحمد :

— أيها الأمير إن الذى جرى عليه كان عقاباً له من الله على ما أتاه من خيانة مولاى . . فقد كنت أعرضت عن قصته وأردت ألا أحزنك بخيانته حتى لا أنغص عليك سعادتك . . ! .

ثم أخذ أحمد يقص على خمارويه خيانة هذا الخادم مع الجارية ، فلما عرف السلطان القصة أمر بإحضار الجارية ، فطلب منها الاعتراف بالحقيقة ، فاعترفت وأخذت تبكى . . ولكن السلطان أمر أحمد اليتيم بأن يذهب بها إلى سيف الجلاد . . !

غادة السودان

قصة من صراع الحرية والاستعمار

كانت فتاة يافعة سمراء، فى الثامنة عشرة من عمرها ، على جانب كبير من الملاحة الحارة والجمال الأسمر . وكانت أمها سيدة عربية من أهالى « دارفور » الإقليم الغربى فى السودان ، ونساء هذا الإقليم معروفات بالجاذبية والجمال . . . وكان تجار الرقيق يسطون على هذا الإقليم وما يجاوره من الأقاليم كإقليم بحر الغزال لسرقة البنات والأبناء أو اختطافهم للاتجار بهم فى أسواق الرقيق فى السودان وأواسط إفريقيا . وطالما أزعجوا عائلات كثيرة بهذه السرقات الوحشية من هذه الأقاليم ، فإذا أعوزهم الخطف أو السرقة ، احتالوا بشراء هؤلاء البنات والأبناء من عائلاتهم الفقيرة . وهم لا يرعون فى ذلك أية عاطفة إنسانية ، ولا همّ لهم إلا جمع الأموال من هذه التجارة البشرية المحرمة . . !

أما والد « حصينة » فهو اللواء محمد سعيد (باشا) من أهالى « الأبيض » عاصمة كردفان . وقد ترقى ضابطاً فى الجيش المصرى حتى حاز رتبة اللواء الممتازة بلقب الباشوية فى ذلك الحين . وكان له زميل من أهل السودان يدعى اللواء حسن (باشا) حسين ، ربطت بينهما الزمالة والصداقة منذ الصبا ، وجمعت بينهما الحياة العسكرية فى مصر والسودان . .

فلما قامت الثورة المهدية ، وانتشرت دعوة المهدى فى معظم الأقاليم السودانية سنة ١٨٨٤ كان « اللواء محمد سعيد » على رأس فرقة مصرية سودانية تبلغ عشرة آلاف جندى تعسكر فى « الأبيض » فبعث إليه المهدى يدعوه إلى التسليم ، فجمع سعيد (باشا) رجاله وشاورهم فى الأمر ، فأشار عليه بعضهم بأن يقتل الرسل ، ولا يبعث بجواب إلى المهدى ، ولكن اللواء حسن حسين عارض هذا الرأى ، ووافقه اللواء محمد سعيد وسائر الضباط ، واستقر الأمر على إعادة الرسل إلى المهدى من غير جواب ، والصمود أمام جيش الدراويش.

وكانت دعوة السيد محمد أحمد المهدى قد وصلت إلى أهالى «الأبيض» سراً واعتنقها منهم الكثيرون ، وبعثوا إليه يدعونه لفتح إقليمهم كما فتح غيره من الأقاليم السودانية ، وقد وعدوه بمعاونة جيشه .

جاءت طلائع جيش المهدى ، وأبدى الأهالى ميولهم إلى الانضمام إلى هذا الجيش ، وأصبح اللواء محمد سعيد ، وزميله اللواء حسن حسين فى حرج شديد بين واجبهما العسكرى ، وواجبهما الوطنى . . ولكن سرعان ما أحاط المهدى بالأبيض ، وكان جيشه يزيد على ستين ألف مقاتل ، وضرب على « الأبيض » حصاراً شديداً اضطر معه اللواء محمد سعيد إلى التسليم ، ثم فر إلى « الفاشر » هو واللواء حسن حسين ، وأقام مع زوجته وابنته حصينة عند أهلهما فترة من الزمان قبل أن تسقط الخرطوم .

اعتكف اللواء محمد سعيد بالفاشر ، وكان يقضى وقته فى تدريب « حصينة » على ركوب الخيل ، والضرب بالسيف والرماية بالرمح والسهام ، ولم يكن قد رزق من زوجته غيرها ، فكان يعنى بها عناية خاصة . وكانت حصينة تجد فى ذلك لذتها الكبرى . وقد علمتها والدتها « حبيبة » القراءة والكتابة ولقنتها بعض العلوم الدينية ، فقد كانت هى تتلقى فى صباها وشبابها شئون الدين وتتعلم القراءة والكتابة عن والدها « الشيخ

حسن الخير » الذى تخرج فى الأزهر ، وعاد إلى وطنه السودان يعظ الناس ويعلمهم شئون الدين ، ويفسر لهم القرآن الكريم .

* * *

فى هذا العام — عام ١٨٨٤ — الذى استفحلت فيه الثورة المهدية ، انتهز الإنجليز هذه الفرصة للقضاء على الحكم المصرى فى السودان ، وتأسيس حكومة إنجليزية استعمارية على أنقاضه ، وكانوا قد قضوا على الثورة العرابية فى مصر ، ونفوا زعماءها إلى الخارج ، وسجنوا وشتتوا أنصارهم ، واحتلوا البلاد المصرية ، وسرحوا أكثر جنود الجيش المصرى ، فاستطاع هؤلاء المحتلون أن يرغموا مصر على إخلاء السودان ، وبعثت الحكومة الإنجليزية « الجنرال غوردون » إلى الخرطوم لسحب الحامية المصرية ، وإقامة حكومة إنجليزية فى السودان يمتد نفوذها إلى ساحل البحر الأحمر ، وتتصل بمستعمراتهم فى أواسط أفريقيا .

وصل الجنرال غوردون إلى القاهرة ، ومعه الكولونيل ستيوارت كاتم أسراره ثم غادرها بعد مقابلته للسير إفلن بارنج واللورد كرومر فيما بعد ، فوصل إلى الخرطوم فى فبراير سنة ١٨٨٤ . ولم تكن قد سقطت فى أيدى الدراويش .

وكان غوردون من المتوكلين على الله — كما كان يزعم . . ! — فلم يصطحب جيشاً معه ، وكان يقول :

« إننى لم آت لإنقاذ السودان بجيش ، ولكنى اتكلت على الله . فلا أحارب إلا بسلاح العدل » ! !

وقد كان يظن أن ادعاءه العدل وتشويهه لسمعة مصر والمصريين فى السودان كافيان لبلوغ أغراضه الاستعمارية ، ولذلك ما كاد يستقر فى الخرطوم حتى جمع أعيان المدينة ، وخطب فيهم قائلا إن مهمته هى :

« أن يخلص السودان من ظلم المصريين » ! !

قال غوردون ذلك وهو يعتقد فى نفسه أنه كاذب مخادع ، ثم شاء إلا أن يزيد فى نفاقه وكذبه وخداعه ، فجمع دفاتر الحكومة القديمة ، وفيها ديون مطلوبة من أصحاب الأطيان خراجاً على أطيانهم ، فوضع الدفاتر فى ساحة عامة ، وأوقد فيها النيران ، وأنشأ مجلساً وطنيا صوريا ، وأطلق من كانوا فى السجون رجالا ونساء . . !

وأراد أن يملئ تجار الرقيق ليكسب معاونتهم وتأييدهم — وهم من أغنى تجار السودان — فأصدر منشوراً بإعادة تجارة الرقيق التى ألغتها الحكومة المصرية . وقال فى هذا المنشور :

« اعلموا أن راحتكم هى غاية ما نرجوه . وبما أن إلغاء تجارة الرقيق قد ساءكم وهالكم ما وضعته الحكومة من القصاص على كل من يمارسها وغير ذلك مما صدر من الأوامر العالية بشأن تأكيد إلغاء هذه التجارة ، فقد رأيت التماساً لراحتكم أن أبطل كل تلك الأوامر ، وأمنحكم الحرية التامة ، فلا يعترضكم أحد فى اتخاذ الرقيق لخدمتكم . والسلام عليكم » !!

وكانت هذه التجارة من أسوأ التجارات اعتداء على كرامة الإنسان وكرامة السودان وأهله . فقد كان التجار والمشترون يبيحون لأنفسهم أن يفحصوا أجساد الرقيق فتيات وفتياناً فحصاً دقيقاً ، وكأنهن سلع تباع وتشترى فى الأسواق بالممارسة والمزاد .

* * *

هال « حصينة » ما فعله الجنرال غوردون بإعادته تجارة الرقيق ، وما يصيب بنات وطنها وأبناءه من إهدار للكرامة والإنسانية باتخاذهم سلعة فى الأسواق على هذا الشكل المزرى الغريب ، وجعلت تمنى نفسها أن يتاح لها يوماً أن تخلص وطنها من هذا الذل والمهانة والاستعباد . . !

وأقبلت على والدها اللواء محمد سعيد تتحدث إليه فى غضب ونقمة وحماسة ، وتسأله عن كيفية الخلاص ، وعن يوم الخلاص ، وهل يمكن

أن يكون قريباً ، فيتحرر السودان وينجو من مساوئ الاستعمار ؟ ! . . فكان والدها يشاركها غضبها وحماستها ، ولكنه يطمئنها بأنه لا بد للحق من أن يعلو على الباطل ، ولا بد للحرية من أن تنتصر فى النهاية . . !

وكان غوردون فى أول عهده بالسودان قد ظن أنه سينجح فى سياسة النفاق والخداع ، وزين له غروره أن قائد الثورة المهدية السيد محمد أحمد المهدى ممن يؤخذون بهذا الخداع ، أو ممن يؤثرون عرض الدنيا على الآخرة ، فأراد أن يرضيه كما أرضى تجار الرقيق على حساب وطنهم !

وكان المهدى قد عسكر فى « الأبيض » بعد الاستيلاء عليها ، فأرسل إليه غوردون يطلب منه إطلاق سراح الأسرى ، ووعده بتوليته ولاية إقليم كردفان ، وأرفق كتابه بخلعة نفيسة هدية للمهدى . . !

فلما دخل الرسول على السيد المهدى ، وقرأ خطاب غوردون ، ورأى هديته ، غضب غضباً شديداً ورد الخلعة ، وقال للرسول :

« قل لصاحبك إننى لم أقم بدعوتى طمعاً فى الولاية والملك . وما آتانى الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون .

« ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » !!

رجع الرسول إلى الجنرال غوردون بهذا الرد ، فعظم عليه أن يجيبه السيد المهدى بهذه اللغة الشديدة ، وأصدر منشوراً يتوعد فيه الدراويش بالعقاب الأليم وينصحهم أن يثوبوا إلى الطاعة ، ثم بعث إلى السير إفلن بارنج « اللورد كرومر » فى مصر يقول :

إذا شئتم أن تتخلصوا من المهدى ، فأرسلوا جنداً لمقاتلته وسحق قواته ، قبل أن تدخل الخرطوم فى حوزته ، فيصعب قهره ، على أنكم

ستضطرون إلى ذلك إن عاجلا أو آجلا التماساً للسكينة والأمن ، وسيكون ذلك — بعد الآن — شاقاً جداً . . !

ولكن السير إفلن تباطأ فى الرد عليه ، فأرسل هو إلى حكومته يستعجلها فى تجهيز حملة لمساعدته فترددت فى بادئ الأمر ، ثم أجابته إلى ما يريد ، وأخذت فى إعداد حملة من الجيش الإنجليزى لإنقاذه !

كان على رجال المهدى أن ينتهزوا الفرصة للاستيلاء على الخرطوم قبل أن تأتى تلك الحملة التى عرفوا أخبارها من جواسيسهم وعيونهم التى بثوها فى كل مكان ، فأخذوا بأمر السيد المهدى يحيطون بالخرطوم ، ويجمعون جيوشهم للاستيلاء عليها . . وكانت الخرطوم هى آخر حصن للإنجليز بعد أن سقطت فى أيدى المهدى سائر أقاليم السودان . . !

ووجد غوردون الخطر يحدق به من كل جانب ، فأمر « اللواء محمد فرج » قائد حامية الخرطوم بمضاعفة تحصينها ، ثم استدعى من الفاشر اللواء محمد سعيد والد حصينة ، وزميله اللواء حسن حسين ، فحضرا إلى الخرطوم ، فكلفهما بقيادة حملة من ألفى رجل إلى حلفاية لصد جيش الدراويش ؛ فترددا فى قبول هذه المهمة التى يضطران فيها إلى محاربة أبناء وطنهما ، ثم رفضا أن يقوما بما أمرهما به « الجنرال غوردون » فهددهما بالقتل ، فوافقا وتظاهرا بالطاعة . وذهبت الحملة بقيادتهما . ثم ما لبثا أن عادا بالفشل فاتهم الجنرال غوردون كلا من اللواءين محمد سعيد ، وحسن حسين بالخيانة ، والميل إلى أبناء وطنهما الدراويش وحاكمهما محاكمة عسكرية بالخرطوم ، وحكم عليهما بالإعدام ونفذ الحكم فيهما أمام الجماهير رمياً بالرصاص . . ! !

* * *

كان لإعدام هذين الضابطين السودانيين على هذه الصورة الوحشية أثر مؤلم فى نفوس السودانيين . وقد زادت هذه المأساة من ضعف غوردون ،

وازدياد قوة المهدى وأنصاره فى أنحاء السودان .

وكانت « حصينة» وأمها وقتئذ فى مدينة الفاشر ، فلما علمت بمقتل والدها هاجرت مع أمها إلى مدينة « بربر » بشمال السودان الشرقى ، وكان الدراويش قد استولوا عليها ، وتولى أمرها خالها « الأمير محمد الخير » أحد قواد المهدى . وكان سقوط بربر ضربة شديدة على غوردون بالخرطوم لأنها كانت واسطة الاتصال بينه وبين مصر ، وأدرك غوردون أنه فى مركز خطير . . !

وكان الأمير محمد الخير — خال حصينة — قد تلقى أمراً من المهدى بالحضور لحصار الخرطوم مع سائر القواد والجيوش الذين استدعاهم لهذه المهمة الكبرى ، فسار على رأس جيش من ستة آلاف فارس يتبعهم « فارس ملثم » ما لبث أن اختفى عن الأنظار حين عسكروا بالقرب من الخرطوم . . .

وكانت مدينة الخرطوم محصنة تحصيناً طبيعياً ، وهناك التحصين العسكرى فى الشرق وسائر الأنحاء بقيادة اللواء محمد فرج .

ورأى السيد المهدى أن يأخذ الخرطوم بالحصار الشديد حتى تسلم كما فعل فى « الأبيض » واستمر محاصراً لها حتى اشتدت الأزمة بغوردون وضاق السكان ونفدت النقود من خزينة الحكومة .

وازداد اضطراب الحال بالعاصمة السودانية ، ولم يملك غوردون إلا أن يصبر الناس ويمنيهم بالحملة العسكرية المنتظرة ، واستطاعت « حصينة » وسط هذا الاضطراب أن تدخل المدينة ، وأن تشيع إشاعات الذعر بين السكان . وفى الوقت نفسه كانت على صلة بالدراويش ، وكان يعاونها فى مهمتها « حسيب الجابى » وهو سودانى كان يعمل جاسوساً لغوردون على الدراويش ، ولكنه فى الحقيقة كان جاسوساً بارعاً للمهدى !

وفى مساء ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ قطع المهدى النيل الأبيض من

أم درمان ، ومعه كبار رجاله وبطانته ، ونزل إلى معسكر « ولد النجومى » فى بلدة « كلاكلا » وألقى هناك خطاباً حث فيه الناس على الجهاد ، وأوصاهم ألا يقتلوا غوردون (باشا) ، وكان يريد من بقائه أسيراً عنده بعد فتح الخرطوم أن يفتدى به الزعيم المصرى « أحمد عرابى » الذى نفاه الإنجليز فى سيلان . . !

وفى صباح اليوم التالى زحف الدراويش لمهاجمة الخرطوم ، وانقسموا فريقين : فرقة تقتحم سورها من النيل الأبيض ، وفرقة تهاجمها من ناحية « بورى ». وكان الجميع تحت قيادة « ولد النجومى » فباغتوا حاميتها ليلا ، فما انتبه اللواء محمد فرج قائد هذه الحامية إلا وقد قضى الأمر وانهال الدراويش على المدينة كالصواعق ، وفى مقدمتهم فارس ملثم ، كان يخوض المعمعة بجراده فى شجاعة وقوة شاهراً سيفه وهو يصيح :

إلى السراى . . إلى السراى . . إلى القاتل . . إلى الكافر . . !

ولم يكن هذا الفارس الملثم إلا « حصينة الحسناء » التى شاءت إلا أن تقتص من غوردون الذى قتل أباها ، واستبد بوطنها ، وأهدر كرامته ، وأعاد تجارة الرقيق ، وأراد أن يذل السودان والسودانيين بالسيف والنار . . !

وكان غوردون قد يئس من وصول الحملة الإنجليزية فى الوقت المناسب ، وفوجئ ليلا بإطلاق النار فى أنحاء المدينة ، فصعد إلى سطح السراى ، فرأى الدراويش يتدفقون كالسيل العرم ، وسمع فارساً بين الفرسان الهائجة يقول :

— إلى السراى . . إلى السراى . . اقتلوه . . اقتلوه ، فقد قتل أبى ، وأهدر كرامة السودان وكرامة المرأة السودانية . .

وسرعان ما اقتحم ثلاثة من الدراويش سراى غوردون بحرابهم الطويلة ، وسيوفهم القاطعة ، وصعدوا إلى أعلى السلم . وكان غوردون قد لبس ثيابه ، وتقلد سلاحه وتهيأ للنزول ، فلما فاجأه الدراويش بالصعود إليه ، قال لهم :

أين سيدكم المهدى ؟

ولعله كان يريد أن يستسلم إليه . ولكن هؤلاء المحاربين كانوا فى ثورة حربية عارمة ، وقد امتلأت نفوسهم بالنقمة على الاستعمار والاستبداد، ودوى فى آذانهم صوت حصينة : « . . اقتلوه . . اقتلوه . . فقد قتل أبى وأهدر كرامة السودان . . » !

ولذلك ما كاد غوردون يتم هذا السؤال حتى أجابه أحدهم بطعنة رمح فى صدره ، وأجابه الثانى بضربة سيف جعلته صريعاً ، وأسرع الثالث فقطع رأسه ، وخرج به إلى زملائه رافعاً إياه فوق سيفه، فهتف الفارس الملثم :

ليحى السودان . . اليوم يهنأ السودان . . فقد انتصرت الحرية على الاستعمار الذى استبد بأبنائه وأهدر كرامته حقبة من الزمان !

هند

كانت من بيت عريق من بيوتات العرب وكانت أجمل لداتها جسماً وأكثرهن أدباً وذكاء ، وكانت ذات دراية واسعة وبديهة حاضرة تنظم الشعر وترتجله ارتجالا . وقد اشتهرت بين عائلات « أم القرى » بفصاحتها وسحر حديثها وسمو محتدها وشرف نسبها . وكان والدها « النعمان » من أهل « الطائف » وكبار سراته. وقد ولدت « هند » فى هذه المدينة الجميلة المحببة إلى قلوب أهل الحجاز لطيب هوائها وكثرة فاكهتها وبرودة مناخها فى فصل الصيف ، فهى مصيف عربى مشهور يهرع إليه السكان فى الصيف هرباً من الحر الشديد !

ولدت « هند » فى هذه المدينة ، ولكن والدها نزل بها مع أسرته « مكة » وهى طفلة صغيرة فنشأت فى « أم القرى » بجوار المسجد الحرام وفى بيئة العلم والأدب والدين ، فتربت تربية حسنة ونهلت من المعارف الدينية والآثار الأدبية ما وسع مداركها وقوم لسانها ، وغذى موهبتها الأدبية ، فكانت تقول الشعر وتنطق النثر كأحسن ما تنطق به فتاة عربية مهذبة فى عهد « عبد الملك بن مروان » .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى شابا من أهل الطائف يشتغل بالتعليم فى أول حياته فعرف ما لهند من الذكاء والموهبة الأدبية ، وكان فصيحاً يميل إلى الأدب[1]، ولكنه كان محارباً ذا طموح سياسى ، فترك الطائف والحجاز وهو فتى يافع ليبلو حظه فى السياسة مع المروانيين فى الشام ،

وانضم إلى « عبد الملك بن مروان » فى قتاله لمصعب بن الزبير فى العراق ، فلمع اسمه فى هذا القتال الذى انهزم فيه « مصعب » وقتل شر قتلة واستولى « عبد الملك » على العراق فقرب الحجاج وآثره بين قواده . ثم كلفه بالرحيل إلى « الحجاز » على رأس جيش كبير لانتزاعه من يد « عبد الله بن الزبير » .

فخرج الحجاج إلى « الطائف » وعسكر فيه حتى نظم قواده وجنوده واستكمل أهبته ثم تقدم صوب « مكة » فلقى دفاعاً شديداً من جيش « ابن الزبير » فحاصره عدة أشهر ، فلم يسلم . فرمى « أم القرى » بالمنجنيق من جبل أبى قبيس حتى استولى عليها ، وكافأه عبد الملك فولاه على البلاد التى فتحها ثم على المدينة واليمن واليمامة ثم على العراق لمحاربة الخوارج الذين اشتد وقتئذ خطرهم فى البلاد العراقية !

كانت « هند » أثناء هذه الحرب بعيدة عن الفريقين المتحاربين ، وكان والدها من رجال الدين والتجار الذين لا ينغمسون فى السياسة ولا يتعصبون لأحد من الفريقين ولا يتشيعون للعلويين أو المروانيين .

فلما استتب الأمر للحجاج بن يوسف بعد انتصاره على ابن الزبير سمع فى أحد مجالسه بخبر هند بنت النعمان وما هى عليه من جمال وأدب وفصاحة ؛ فرغب فى الزواج بها . ولكن كيف يحقق ما يريد وأهل مكة ناقمون عليه جميعاً لرميه مدينتهم المقدسة بالمنجنيق وذبحه الكثيرين من أنصار ابن الزبير ؟ !

كيف ترضى به « هند » زوجاً وقد انتهك حرمة الدين وهدم الكعبة ودمر المسجد الحرام وهى الفتاة العربية المسلمة المتدينة ؟

لذلك حرص الحجاج على أن يبدأ بإصلاح الكعبة وبناء ما تهدم من المسجد ومن مكة المكرمة حتى عادت إلى ما كانت عليه وأراد أن

يخطب « هنداً » من أبيها ، ولكن عبدالملك بن مروان أمره أن يسافر على رأس جيشه إلى العراق للقضاء على فتنة الخوارج التى مزقت أوصال العراق فذهب إلى « الكوفة » وارتقى منبرها وألقى خطبته المشهورة التى أعلن فيها سياسته وتوعد وهدد واستطاع مع قائده المهلب بن أبى صفرة أن يقضى على الفتنة !

وما كاد الحجاج يهدأ من الحرب ويستتب له الأمر فى العراق حتى أرسل إلى « النعمان » بمكة يطلب الزواج من ابنته « هند » فلما بلغها هذا الطلب ارتاعت ورفضت رفضاً شديداً لأنها لا تريد أن تعيش مع « هادم الكعبة » ومخرب بيت الله الحرام !

ماذا يفعل « النعمان » وقد خشى انتقام هذا الحاكم المستبد الجبار الذى أرسل إليه رسوله يأمره بالسفر فوراً إلى « الكوفة » ليخطب ابنته فجعل يتوسل إليها ألا ترفض طلب الحجاج ، ولكنها كانت تأبى وتصر على الإباء والرفض ، فساءت حال « النعمان » وبلغ به الخوف من الحجاج مبلغه . فلما وجدت « هند » ذلك أشفقت على والدها واستجابت لرغبته وأبلغته موافقتها على ما يطلب الحجاج !

* * *

سافر النعمان وقابل الحاكم الجبار بالكوفة فلقى منه ما أدهشه فقد قام له من مجلسه منتفضاً لمقابلته وحياه تحية بالغة الاحترام والتكريم ، ثم أجلسه بجانبه فكانت مفاجأة غريبة للنعمان إذ كان يعلم من جبروت الحجاج وصلفه ما هو مشهور عند جميع العرب ، فلما اطمأن فى مجلسه وانشرح صدره أطلعه الحجاج على رغبته فى خطبة هند ابنته ، فلم يسعه إلا الترحيب واتفق معه على الزواج ، وبذل له الحجاج مالا جزيلا وشرط على نفسه إن هو طلقها أن يدفع لها مائتى ألف درهم . . !

عاد « النعمان » إلى مكة وأخبر ابنته بما حدث فاضطرت إلى الإذعان

لرغبة أبيها حتى لا يصيبه سوء من هذا الجبار العنيد !

مكث الحجاج ينتظر لقاء هند وزفافها إليه فقد أغرم بها غراماً شديداً منذ سمع عن جمالها وأدبها وفتنتها وكان فى خلوته قبل حضورها إلى الكوفة يردد قول الشاعر :

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجـد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وجاء يوم رحيل « هند » من مكة إلى الكوفة للزفاف إلى الحجاج فبكت بكاء شديداً واجتمع عندها من فتيات مكة لداتها وصديقاتها يشجعنها ويسلينها ولكنها كانت تشعر فى نفسها بكراهية هذا الجبار . وكانت غير راغبة فى الزواج به لولا دافع الخوف على والدها الذى تحبه وتؤثره وتضحى فى سبيل أمنه وراحته بسعادتها وراحتها .

رحلت مع والدها وبعض أهلها إلى « الكوفة » وزفت للحجاج بن يوسف وأصبحت زوجة أمير العراق وخراسان وشرق بلاد العرب كله بما حصل عليه من انتصارات ، ونجح فيه من حروب .

ولكن هل هذا الزواج قد أرضى نفسها الغاضبة وأراح قلبها المعذب؟

كلا .. إنها تكره الحجاج ، تكره هادم الكعبة ، تكره الحاكم الجبار المستبد ، لا تعتبر المستبد عظيماً أو عبقرياً ، وإنما تعتبره متسلطاً جباراً أو بغلا من البغال الأقوياء . . !

كذا كانت تعتقد وكذلك كانت تقول . . فى ذات يوم كانت هند واقفة تزدان أمام المرآة فدخل عليها الحجاج فى تلك الساعة دون أن تشعر بدخوله فسمعها تقول :

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلا فلله درها وإن ولدت بغلا فجاء به البغل

فانصرف البغل مغضباً ولم يخاطبها بكلمة واحدة ثم دعا قاضى المدينة

وأعطاه مائتى ألف درهم وأمره أن يذهب إلى هند فيسلمها إياها ويعلن لها طلاقها قائلا : يقول لك الحجاج : « كنت فبنت » . . !

فذهب الرجل إليها وأعلنها بالطلاق البائن وقدم لها المبلغ فابتسمت وقالت :

ـ هذا المبلغ لك بشارة بخلاصى من كلب بنى ثقيف !!

* * *

بانت هند عن الحجاج وانتقلت إلى بيت أبيها وذاع نبأ طلاقها من هذا الحاكم الجبار وأخذ الناس يتحدثون فى أمره ويعجبون كيف أن الحجاج على قسوة قلبه وشدة بأسه لم يقو على أن ينتقم من تلك الفتاة التى أهانته وجعلته بغلا من البغال على مسمع منه .

فارقت « هند » الحجاج وسلمت من انتقامه ولكنها أرادت أن تنتقم منه وتذل نفسه ، فقد كانت نفسها تغلى حقداً عليه منذ هدم الكعبة وسفك دماء المسلمين فى البلد الحرام وبقيت تنتهز الفرصة حتى أتيحت لها وكان لها ما أرادت . . !

ذلك أنه بينما كان « عبد الملك بن مروان » جالساً ذات يوم مع بعض خاصة ملكه إذ بلغه خبر « هند » وما هى عليه من جمال وفتنة وأدب بارع وسحر رائع فرغب عبد الملك فى الزواج بها ، فأرسل إليها من يخطبها لنفسه . فلما جاءها رسول أمير المؤمنين تناولت القلم وكتبت له كتاباً تعتذر فيه عن الزواج . فلما وصل الكتاب رد رسوله إليها يلح فى زواجها فلم يسعها إلا قبول رغبته ثم كتبت له تخبره بقبولها ، ولكنها شرطت عليه أن يسير القواد والأمراء فى موكب زفافها إلى الملك . وفى مقدمتهم أكبر ولاته وأمراء دولته « الحجاج بن يوسف » !

وافق عبد الملك على هذا الشرط وبعث إلى أمير العراق يدعوه لحضور « زفاف هند » كما دعا الأمراء والقواد .

وفى يوم الزفاف تقدم الموكب رجال الدولة . وبعث أمير المؤمنين إلى الحجاج باعتباره أكبر قواده وأمراء دولته بأمره أن يقود «جمل هند» فصدع لأمره وتحقيقاً لرغبة ملك بنى أمية، فركبت وركب حولها جواريها ووصيفاتها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير مع الجميع !

وفى أثناء الطريق جعلت « هند » تتواغد على الحجاج فى همس وهو منصت سامع ثم ضحكت فاغتاظ غيظاً شديداً حتى كاد يفلت زمام البعير من يده ولكنه كظم غيظه خوفاً من عبد الملك !

ولما اقتربت من القصر رمت بدينار على الأرض ونادت من وراء الستر :

— ياجمال . . سقط منا درهم ، فارفعه إلينا .

فنظر الحجاج فلم يجد غيره يقود البعير ، والتفت إلى الأرض فلم يجد إلا ديناراً . فقال لها فى همس :

— إنما هو دينار لا درهم . . !

فقالت هند :

— بل هو درهم . . !

فقال الحجاج :

— بل هو دينار . . !

قالت هند ضاحكة :

— الحمد لله . . سقط منا درهم فيعوضنا الله منه ديناراً . .

فخجل الحجاج . وانصرف بعد الزفاف كئيباً مغيظاً . . !

أوجينى

الإمبراطورة اللعوب التى ضيعت العرش

« لا تضيعى الوقت سدى فقد دخل الثائرون القصر الإمبراطورى وحان وقت الهرب » . . !!

فأجابت الإمبراطورة أوجينى سفير إيطاليا السنيور نيجرا فى هدوء وتجلد وهى تكبت شعورها بالحزن والأسى :

— إذن ، لنودع أصدقاءنا قبل الرحيل !

ودخلت الإمبراطورة غرفة الاستقبال ، وهى تتكلف الابتسام وشرعت فى توديع الحاضرين ، غير أن البرنس مترنيخ سفير النمسا أسرع إليها ، ودفع بها إلى الباب لتخرج دون أن تودع باقى الحاضرين ، ثم أغلقه وراءها فى عنف وإذلال . وكانت هناك عربة فى انتظارها فاستقلتها وأسدلت نقاباً على وجهها حتى لا يراها أحد ، ولما بلغت الشاطئ أبحرت على ظهر اليخت المعدّ لها ، وذهبت هاربةً إلى إنجلترا . .

وكان زوجها الإمبراطور نابليون الثالث قد هزم فى الحرب البروسية عدة هزائم انتهت بأسره وبحصار باريس سنة ١٨٧٠ م .

وقد عزا بعض المؤرخين هذه الهزائم إلى « أوجينى » التى كانت بمثابة المستشار لهذا الإمبراطور فى سياسته الداخلية والخارجية ، فقد كانت هذه الحسناء الفاتنة امرأة قوية الشخصية مغامرة ، لا تشير على زوجها

الإمبراطور إلا بسلوك أصعب الطرق . وقد تولت الحكم نيابة عن زوجها فى ثلاث مناسبات غاب فيها الإمبراطور عن العاصمة الفرنسية فى الأعوام ١٨٥٩ و ١٨٦٥ و ١٨٧٠ لأن الإمبراطور نابليون الثالث كان مفتوناً بها وبما كانت عليه من فطنة وذكاء ، وكان تأثيرها عليه شديداً أدى إلى خضوعه لمشورتها فى المسائل الكبرى ، وذلك على الرغم من أنها لم تكن فرنسية الأصل ، فقد كان اسمها « مارى أوجينى أجناس أوجستين دى مونتجو » ابنة « دون سبريانوجوزمان » كونت تيبا ، وقد ولدت فى مدينة غرناطة الإسبانية عام ١٨٢٦ ، وكانت أمها ابنة « وليام كيركباتريك» القنصل الأمريكى فى مدينة ملقا وهو أسكتلندى الأصل ولكنه استوطن أمريكا وتجنس بالجنسية الأمريكية .

قضت « أوجينى » عهد الطفولة فى إسبانيا ، ثم انتقلت مع أمها وأختها إلى فرنسا فى الثامنة من عمرها ، وتلقت علومها فى المدارس الفرنسية ، وتعلمت عدة لغات هى : الإسبانية لغة أبيها ، والإنجليزية لغة أمها ، والفرنسية لغة البلد الذى هاجرت إليه .

وفى شهر نوفمبر عام ١٨٥٢ دعيت « أوجينى » هى وأمها إلى حفلة فى مدينة فونتنبلو ، ظهرت فيها أوجينى كفارسة حسناء تحسن ركوب الخيل ، ففتن جمالها قلوب الحاضرين . وفى مقدمتهم الإمبراطور نابليون الذى كان يرأس الحفلة ، فأعجب بها إعجاباً شديداً ، وأخذ هذا الإعجاب يتطور حتى استحال إلى حب جارف عنيف أدى إلى زواجه بها فى يناير عام ١٨٥٣ ، وأقيمت لها حفلة زفاف كبرى فى كنيسة نوتردام لم تشهد فرنسا حفلة مثلها فى أبهتها وفخامتها ومشاهدها الرائعة . ولما انتهى الاحتفال ، صحبها نابليون الثالث إلى قصر التويلرى .

وقد تضاربت مشاعر أفراد الشعب الفرنسى بإزاء هذا الزواج ، فالبعض قد حبذه ، لأن الإمبراطور تزوج المرأة التى أحبها ، وهى إن لم

تكن فرنسية ، فهى سليلة أسرة كريمة المحتد . وكان البعض الآخر يعترض على هذا الزواج ، ويرى أنه كان على الإمبراطور أن يختار زواجاً سياسيا يقوى به مركز فرنسا ، كما كان العهد قديماً بين ملوك أوربا . . !

وعلى الرغم من اعتراض المعترضين ، فقد شاء التاريخ أن تجلس الفتاة الحسناء أوجينى إلى جانب نابليون الثالث على عرش فرنسا الإمبراطورى ، تسيطر على الإمبراطور وعلى من حوله بجمالها الفتان ، وشخصيتها الجذابة ، وفطنتها الخلابة ، وعباراتها العذبة ، وحديثها الشائق ، ورأيها المهيب !

وقد استطاعت أن تجعل نابليون الثالث يمحو ما كان بين إنجلترا وفرنسا من عداء قديم بالتحالف بين الدولتين . ولكى توطد هذا التحالف سافرت مع زوجها الإمبراطور إلى إنجلترا لزيارة الملكة فيكتوريا فى قصرها بلندن ، فاستقبلتهما ملكة إنجلترا وزوجها ألبرت استقبالا حافلا وأقامت لهما عدة حفلات باهرة ، وبعد مدة وجيزة ردت الملكة فيكتوريا وزوجها الزيارة للعاهلين الفرنسيين . وكان لهذه المودة التى وطدتها أوجينى مع الملكة فيكتوريا أثرها فيما بعد حين لقيت محنتها فى الحرب السبعينية مع زوجها ، فقد عطفت عليها فيكتوريا واستضافتها فى بلادها ، وخلعت عليها كل وسائل الاحترام والتكريم .

وفى ١٦ مارس عام ١٨٥٦ وضعت أوجينى ابناً أطلق عليه لقب « الأمير الإمبراطورى » كما أطلق عليه لقب « ابن فرنسا » .

ولقد كانت « أوجينى » نموذجاً رائعاً تقتدى بأناقتها وأبهتها نساء أوربا . . !

وعلى الرغم مما كانت تعيش فيه من أبهة وملك عريض ، وما كان لشخصيتها من تأثير فى الخاصة والعامة ، فقد كان للإمبراطورية الفرنسية الثانية خصوم يريدون القضاء عليها وعلى عاهليها . وقد حدث أنها وزوجها

كانا يمتطيان مركبة تنطلق بهما إلى دار الأوبرا الإيطالية فى أوائل يناير عام ١٨٥٦ فألقيت عليهما ثلاث قنابل أريد بها اغتيالهما، انفجرت تحت العجلات ، وذهبت بأرواح بعض أفراد الحاشية ولم يصابا بأذى . وقد قال الإمبراطور فى كلمة ألقاها فى البرلمان الفرنسى :

« أشكر الله الذى منح الإمبراطورة ومنحنى حمايته ورعايته ، وإنى لحزين جداً لأن مؤامرة أريد بها اغتيال حياة اثنين أفضت إلى الذهاب بأرواح كثيرة » .

* * *

وكان عام ١٨٦٩ م ، فدعى الإمبراطور نابليون الثالث والإمبراطورة أوجينى إلى حفلة افتتاح قناة السويس، فى ١٦ نوفمبر من تلك السنة كما دعى كثير من ملوك أوربا وأمرائها إلى هذه الحفلة ، فابت الإمبراطورة الدعوة وتخلف الإمبراطور فلم يحضر الاحتفال .

وكانت الإمبراطورة أوجينى تواقة أن ترى مصر ، وترى قناة السويس ، وأن ترى ذلك الرجل الذى اشتهر بالبذخ والإسراف حتى أصبحت بلاده غارقة فى الديون ، والذى عرف عنه أنه يحاثة عن متعه وملاذه أينما كانت ، وكيف كانت العواقب .

من أجل هذا رحلت الإمبراطورة أوجينى قبل موعد الاحتفال بثلاثة أسابيع فوصلت القاهرة فى الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر عام ١٨٦٩م . وبادر الخديو إسماعيل فاحتفل باستقبالها الاحتفال الذى أراد به أن يحدث أثره الأول فى نفسها ، وأنزلها فى قصر الجزيرة ، وحاطها بكل ضروب المتعة التى تصبو إليها كل نفس ، وقام بشئون ضيافتها بصورة فاقت كل ما ألفه الملوك وأعاظم العواهل فى العالم .

وكان قد سبق أن قيل له إنه لا بد لها من زيارة الأهرام وأبى الهول ، وإن الطريق لذلك الأثر الفرعونى العظيم غير ممهد . فأصدر أمره بتمهيده

وجعله صالحاً لسير المركبات وزراعة الأغراس الوارفة الظلال على الجانبين ، وما كان أسرع وزير الأشغال ومدير الجيزة إلى إصدار أوامرهما بتسخير عدد كبير من الأهالى الذين دأبوا على العمل ليلا ونهاراً حتى تم تمهيد هذا الطريق الطويل فى أقل من ستة أسابيع ، وغرست الأشجار على الجانبين فأظلته وجعلته من أجمل الطرقات !

ومع أن « أوجينى » كانت فى ذلك الوقت فى الثالثة والأربعين من عمرها ، إلا أنها كانت لا تنفك ساحرة الجمال ، خلابة الحسن ، رائعة القوام ، كأنها لا تزال فى عقدها الثالث ، ففتن إسماعيل بحسن دلها ، وسحر لحاظها ، وفتنة جمالها ، وهو الرجل المفتون دائماً بكل امرأة جميلة ، كائنة من كانت ، يسبيه الجمال ، ويسحره الحسن والرشاقة ، فلازمها إسماعيل ، وأغرم بها غراماً ، وأعد لها كل أسباب المتعة والراحة ، وأحاطها بحفاوته ورعايته ، وأقام لها معالم الابتهاج وأسباب الأبهة والفخامة التى تأخذ بلبها وتسحرها ، حتى أصبحت أوجينى نشوانة بتلك المظاهر التى لم ترها ولم تحلم بها .

* * *

وبعد أن قضت أسبوعاً فى القاهرة ، أعدت لها العدة لرحلة نيلية إلى صعيد مصر لرؤية آثار الفراعنة فى الأقصر وأسوان ، ورافقها إسماعيل فى تلك الرحلة ، وكانت رحلة حافلة بكل ضروب الترف والمسرات .

ووقفت أوجينى أمام تلك الآثار الخالدة ، وراحت ترنو إليها بأنظارها وخيالها يسبح فى أجواز الفضاء ، وتتخيل ما كانت عليه ملكات الفراعنة من أبهة وعظمة ، وما تنعمن به من متع الحياة .

وعادت الضيفة الجميلة ، والمضيف من هذه الرحلة الممتعة ، ولما وصلا إلى القاهرة بادر إسماعيل بالرحيل إلى الإسكندرية ، واستقل يخته

المحروسة إلى بورسعيد ليكون فى استقبال ضيوفه من الملوك والأمراء ، وكان أول الوافدين منهم أمير هولندا وأميرتها ، ثم إمبراطور النمسا والمجر ، ثم البرنس فردريك ولهلم ولى عهد بروسيا ، وفى يوم ١٦ نوفمبر أقبلت السفينة « إيجل » — النسر — تحمل الإمبراطورة الحسناء أوجينى رئيسة الاحتفال — يحف بها النبلاء والنبيلات والوصيفات .

وأعد لها إسماعيل مظاهرة ضخمة عظيمة لاستقبالها ، فتجمع على الأرصفة فى نظام بديع ضباط الجيش وأركان الحرب ، ورجال الموسيقى وجماهير غفيرة من الأهالى ، والأعلام تعلو الرؤوس ، والمدافع تطلق قذائفها تحية لضيفة إسماعيل الساحرة ، حتى لم يسع أوجينى إلا أن تهتف لمن حولها بقولها : « يا لله ! لم أر فى حياتى شيئاً أجمل من هذا ! »

وبدأ الاحتفال العظيم الذى تكلف ملايين الجنيهات ، والذى ناءت من وطأته خزانة مصر ، فى سبيل مظهر كاذب ، وفى سبيل متعة زائلة عابرة . . !

ثم انطلقت بها باخرتها تعبر قناة السويس حتى وصلت إلى الإسماعيلية ، وكان إسماعيل قد أقام هناك قصراً خاصا ، فلما وصلوا إلى الإسماعيلية وانتهى الاحتفال ، وتقدم إسماعيل إلى ضيوفه يشكرهم واحداً واحداً على تفضلهم بتلبية دعوته ، ذهب إلى ذلك القصر الجديد .

وبعد أن أيقنت أوجينى أن إسماعيل قد نال قسطاً من الراحة ، امتطت ظهر جواد مطهم ، وانطلقت إلى ذلك القصر ، لتشكر الخديو على حفاوته العظيمة بها ، تلك الحفاوة التى لن تستطيع نسيانها ، والتى ظلت ماثلة فى ذهنها مدى حياتها .

أما باقى الملوك والأمراء فقد آثروا أن يذهبوا إلى قصر إسماعيل للشكر بعد الظهر . وفى المساء أقام إسماعيل حفلة راقصة عظيمة تحت رياسة الإمبراطورة أوجينى .

عادت الإمبراطورة الحسناء إلى بلادها من حفلة افتتاح قناة السويس نشوانة بهذه الفخامة والأبهة والمظاهر الضخمة والمتع الشائقة فى تلك الليالى التى دونها ما روته ليالى « ألف ليلة وليلة » من عجائب وغرائب قدمها إسماعيل لهذه الحسناء الفرنسية فى حفلة القناة التى حفرت بدماء الشعب وأرواحه . . !

ولم يمر عام حتى كانت الحرب السبعينية بين بروسيا والإمبراطور نابليون .

وكانت أنباء الهزائم تتوالى على مسامع الإمبراطورة أوجنى وهى قابعة فى قصر التويلرى ، فأخذت تتجلد وتبدو للأنظار ثابتة الجنان . وقد أرادت أن ترتدى ثياب الركوب ، وتمتطى ظهر جواد ، وتنطلق به فى شوارع باريس تحث الناس على القتال والنضال ، فلما بحثت عن ثوبها ، وجدت أن الخدم قد انتهزوا فرصة الاضطراب وسرقوا كل ثيابها ، فلم يسعها أن تفعل ما أرادت . ولو أن الإمبراطورة قامت بما اعتزمته لكان تاريخ تلك المواقع أقل حطة وخساسة مما دونه التاريخ .

وقد أظهرت أوجنى فى هذه الساعة الرهيبة هدوءاً وشجاعة وثبات جنان أثارت إعجاب كل من رآها ، وأخيراً هربت إلى إنجلترا .

وأكرمتها الملكة فيكتوريا ، وأنزلتها فى قصر « تشرلهرست » حيث وافاها زوجها وابنها لويس نابليون ، وفى هذا القصر قضى الإمبراطور نابليون الثالث بقية حياته حتى وافاه أجله ، ودفن فى أرض إنجليزية .

أما الابن لويس نابليون فقد لقى حتفه فى إحدى المعارك ضد الزولو عام ١٨٧٩ ، وفى العام التالى ذهبت أوجنى إلى المكان الذى دفن ابنها فيه ، وعادت برفاته ودفنتها إلى جانب رفات أبيه .

* * *

ولقد قضت أوجنى بقية حياتها فى عزلة تامة لا تتصل بأحد ، ولا

يتصل بها أحد، وكانت تتبع الأحداث التى تجرى فى فرنسا وهى مقيمة فى الفيلا التى شيدتها فى كاب مارتن على شواطئ الريفييرا ، ولكنها لم تكن تتدخل فى السياسة الفرنسية ألبتة .

وفى سنة ١٩٠٥ زارت مصر الإمبراطورة (السابقة) أوجينى ، ونزلت فى فندق سافوى ببورسعيد متنكرة، فاقترح الشيخ على يوسف على الشعراء أن ينظموا فى وصف هذه الإمبراطورة ، ويوازنوا بين مجيئها إلى مصر فى هذه السنة ، لالتفت إليها الأنظار ، ومجيئها قبل ذلك سنة ١٨٦٩ فى افتتاح قناة السويس ، فنظم حافظ إبراهيم فى ذلك قصيدة جاء فيها :

أين يوم القنال يا ربة التا ج وياشمس ذلك المهرجان
أين مجرى القنال أين مميت الـ ـمال أين العزيز ذو السلطان
أين ذا القصر بالجزيرة تجرى فيه أرزاقنا وتحبو الأمانى
فيه للنحس كوكب مسرع السيـ ـر وللسعد كوكب مُتوان
كنت بالأمس جنة الحور ياقصـ ـر ، فأصبحت جنة الحيوان
خطر الليث فى فنائك ياقصـ ـر ، وقد كنت مسرحاً للحسان
إن أطافت بك الخطوب فهذى سنة الكون من قديم الزمان
ربّ بان نأى ، ورب بناء أسلمته النوى إلى غير بان
تلك حال الإيوان يا ربة التا ج ، فماحال صاحب الإيوان
قد طواه الردى ولو كان حياً لمشى فى ركابك الثقلان
إن يكن غاب عن جبينك تاج كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتاج لا يدانيه فى الجلال مدان
كنت بالأمس ضيفة عند ملك فانزلى اليوم ضيفة فى خان
واعذرينا على القصور كلانا غيرته طوارئ الحدثان

وبعد أن قضت أياماً فى بورسعيد استعادت فيها ذاكرتها تلك الأيام الذهبية والليالى الإسماعيلية التى مرت بها السنون كما تمر الأحلام ، عادت

إلى إنجلترا . وكانت بين حين وحين تقوم بزيارات إلى بعض عواصم أوربا ما عدا فرنسا حتى كانت سنة ١٩٢٠ فقامت بزيارة ملكة إسبانيا ، وقد أخذت السنون من صحتها ونشاطها ، وهناك فى مدريد اشتد عليها المرض ، فقضت نحبها فى ١١ يوليو من تلك السنة وانطفأت تلك الحياة التى امتلأت بالأحداث الكبرى ، ولعبت صاحبتها دوراً خطيراً فى السياسة الأوربية ، وكان لها من فتنتها وسحر جمالها وتأثيرها فيمن حولها من إمبراطور ووزراء ورجال أقوى أداة وأعظم سلاح . . !

من الدير إلى العرش

هى قصة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، فقد جمعت من المغامرات والحوادث والمفاجآت ما اعتاد القراء أن يجدوه فى القصص وحدها ، ولكنها مع ذلك قصة واقعية يشهد التاريخ بوقوع حوادثها لأنها تركت فيه أثراً يذكر بين صفحاته .

وبطلة تلك القصة هى الحسناء الفرنسية « إيميه دى ريفرى » قريبة جوزفين زوجة نابليون الأولى .التى لا تقل حياتها مغامرة عنها ، وقد كان بين حياة الاثنتين ارتباط وثيق من البداية إلى النهاية .

ولدت « إيميه دى ريفرى » فى جزر المارتنيك القصية ، وهى من سلالة أحد أشراف فرنسا المدعو « بيير دوبوك » .

التحق بيير دوبوك بالجيش الفرنسى بفرقة يستليو وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، واشترك فى حرب الثلاثين سنة ، وظل يقاتل فيها ويجاهد أربع سنوات حتى وقعت مبارزة بينه وبين الشاب « الشفالييه دى بيانكور » قتل الأخير فيها ، ولما كانت المبارزة محرمة فى ذلك الوقت ، فقد خاف دوبوك العقوبة وهرب إلى جزر الهند الغربية حتى إذا بلغ سانت كيتس أعجب به الحاكم الفرنسى « دسمانلاك » فأرسله إلى مارتنيك بصحبة ابن أخته « دى باركيه » .

وهناك كان دوبوك مثال الهمة والإقدام فإنه أول من أنشأ مزرعة لقصب السكر فى « لاترينيتيه » وأول من زرع الكاكاو . وفى الوقت

نفسه كان يشترك فى كل قتال يدور بإحدى الجزر الهندية . وهكذا استقر فى معيشته بتلك الأقطار النائية وأنشأ أسرة وخلف أولاداً وأحفاداً . ومن بين أحفاده هؤلاء فرنسوا دوبوك دى ريفرى الذى تزوج مارى فيكتوريا ميناز سليلة أسرة فرنسية قديمة ، ومن هذا الزواج نشأت « إيميه » التى أصبحت بتصاريف القدر العجيبة « السلطانة الوالدة » فى الدولة العثمانية !

* * *

كانت أكثر الأسر الفرنسية فى مارتنيك متصلة بصلة القرابة ، وهكذا كانت جوزفين « إمبراطورة فرنسا فيما بعد » قريبة وصاحبة لإيميه « سلطانة تركيا فيمابعد أيضاً » وكانت الاثنتان تلعبان معاً وتتريضان فكانتا كتمثالين متحركين للجمال الفرنسى .

وقد ذكرت « مدام له نورمان » فى مذكراتها الشهيرة عن الإمبراطورة جوزفين أنها لما كانت بمارتنيك وقد بلغت الثالثة عشرة من عمرها خرجت يوماً تتراض مع قريبتها وصديقتها « إيميه دى ريفرى » فصادفتهما امرأة زنجية ، وذكرت المؤلفة أن اسم هذه المرأة « بوفيمى دافيد » فتنبأت لكلتيهما بمستقبلها المجيد . . !

وفى سنة ١٧٧٦ أرسل « إيميه » أبواها إلى فرنسا لكى تتم تعليمها فى دير للراهبات بمدينة نانت . وكانت رحلة شاقة فى سفينة شراعية صادفت الأنواء والأخطار ، ولكن « إيميه » وصلت سالمة ودخلت الدير ومكثت فيه سنوات مع الراهبات تتلقى عليهن التعاليم وأكثره دينى وترتل معهن الأدعية وتقيم الصلوات . وكانت الحرب إذ ذاك ناشبة بين فرنسا وإنجلترا ، فاضطرت « إيميه » أن تمكث بذلك الدير أطول مما قدره أهلها من قبل خوفاً من مخاطر السفر إلى مارتنيك .

وأخيراً بدأت رحلتها عائدة إلى وطنها فى أواخر سنة ١٧٨٣ بعد أن

عقد الصلح بين فرنسا وإنجلترا وصارت البحار آمنة نوعاً ، فركبت سفينة شراعية صغيرة مع خادمها الزنجي الأمين . ولكن لم تكد السفينة تمخر عباب « خليج بسكاى » حتى دهمتها عاصفة هوجاء فأشرفت على الغرق ، وإذا بسفينة إسبانية كبيرة قد أتت لنجدتها ، وظنت الفتاة الفرنسية المسكينة أنها قد نجت من الخطر ، ولكن ما كادت السفينة الإسبانية تصل إلى مقربة من شواطئ إسبانيا فى البحر الأبيض المتوسط حتى هاجمها القرصان الجزائريون فقتلوا الرجال وسبوا النساء . وكانت « إيميه » من ضمن أولئك السبايا . وقد عبروا بها وبهن البحر الأبيض المتوسط ميممين شطر الجزائر حيث كانت سوق الرقيق أروج ما تكون فى ذلك الحين . . !

وانتقلت « إيميه » بغتة إلى عالم الشرق بشمسه الساطعة ومآذنه الشاهقة ومناظره التى لم تألف مثلها قط ، ولم تدر أن هذه أول خطوة إلى عالم لا تعود منه ، بل ستصبح ربته وملكته . ولم تلبث أن جيء بها إلى « بابا محمد بن عثمان » زعيم القرصان وهو جالس على أريكته فى ثيابه المزركشة الموشاة بالذهب . وكان هذا الزعيم يقاتل الدول كلها ولكنه كان على مودة مع سلطان تركيا وكان يعد نفسه تابعاً له . فلما نظر إلى « إيميه » وشهد جمالها الغربى الفاتن رأى أن يقدمها هدية للسلطان « عبد الحميد الأول ».

وسرعان ما أعدت سفينة لنقلها إلى إستامبول فقاومت السفينة الأمواج والأنواء ومخرت عباب البحر الأبيض المتوسط ثم بحر إيجيه حتى مرت بالدردنيل وبحر مرمرة ، والفتاة المسكينة صابرة مستسلمة لا تدرى إلى ماذا يبلغ بها القدر ، ولا تتوقع أنها ستكون زوجة سلطان وأنها ستترك فى التاريخ أثراً بارزاً . وقد راعها ما رأته فى الآستانة من مناظر تدل على عظمة آل عثمان وتنبئ بمبلغ التفاوت بين مدنية الغرب ومدنية الشرق .

ولما أدخلت السراى كان لا بد من تسميتها باسم تركى ؛ فسميت

« نشك » وولجت باب الحريم الذى كثيراً ما عبرته مثيلاتها من قبل ولم يخرجن منه بعد ذلك . وسلمت إلى رئيس الأغوات ، ولا يجهل القارئ وظيفته ولا سلطته فى ذلك العهد العتيق . وبعد أن اغتسلت وارتدت الثياب الشرقية والحلى والجواهر التى تليق بالظهور أمام السلطان، قدمت إليه وهو جالس فى كشك بغداد تحيط به مظاهر العظمة والترف . وكان « السلطان عبد الحميد الأول » معروفاً بعلمه وحلمه ووداعته ، ومن حسن حظ « إيميه » أن يكون سيدها أو زوجها كذلك . وقد أعجب بها أيما إعجاب وجعلها السرية المختارة والزوجة المفضلة . والثابت أن عيشتها معه كانت عيشة هنية حتى ليحق لها بسبب ذلك وما بلغته من الرفعة والسلطة أن تحمد القدر الذى أتاح لها القرصان ليوصلوها إلى الآستانة !

وأتيح لها سبب آخر غير جمالها يوطد مكانتها لدى السلطان وفى السراى ، فقد حملت منه وأصبحت « السلطانة الوالدة » ولا يجهل القارئ نفوذ السلطانة الوالدة فى قصور آل عثمان . ويكفى أن نقول إنها كانت بمثابة الملك فى قصره وكان رئيس أغواتها بمثابة كبير الوزراء .

وفى سنة ١٧٨٥ ولدت ابنها السلطان محموداً الثانى المعروف فى التاريخ باسم « المصلح » وفى أبريل سنة ١٧٨٩ توفى زوجها السلطان ، ولكنها من قبل أن تلد وتصبح السلطانة الوالدة كانت قد اندمجت فى دسائس البلاط العثمانى وعرفت كيف تكسب الأنصار وتكافح الخصوم . وكان سليم هو ولى العهد بعد موت عبد الحميد ، ولكنه كان خاملا ضعيفاً ، ولذا أخذت والدة أخيه مصطفى تحيك الدسائس حتى يحل ابنها محله فلم تجد « إيميه » من خطة أمامها سوى أن تتحد مع والدة سليم مادامت الظروف قد وحدت بين مصلحتهما .

ولا يتسع المجال لسرد الوقائع الدموية التى تخللت صعود سليم إلى العرش ومدة حكمه والمؤامرات التى دبرت لقتله . ولكننا نقول إنه تخلل

ذلك العهد وما أعقبه عامل واحد لم يتغير قط وهو حرص تركيا على سياسة الصداقة مع فرنسا سواء فى عهد لويس السادس عشر أم فى بداءة عهد نابليون ، ومن ذلك أيضاً رجاء السلطان لنابليون أن يعاونه فى القضاء على الانكشارية . وغنى عن البيان أن « إيميه » كانت خلف تلك السياسة والموحية بها والمغرية بالمثابرة عليها ، وإلى نفوذها وحده يرجع الفضل فى تفوق سفير فرنسا بالآستانة على سفير إنجلترا .

وقد أنزل السلطان سليم من العرش وسجن وحل محله السلطان مصطفى ، غير أن عهده لم يطل فقد نشبت ثورة واقتحم الثوار القصر وطالبوا بسليم السجين ليعيدوه إلى العرش . وعندئذ بعث والدة مصطفى رسلها ليقاتلوا سليماً ومحموداً (نجل إيميه) كليهما حتى يصفو الجو لابنها وحده . ولكن إحدى جوارى إيميه أنقذت محموداً من الثوار إذ رمت فى وجوههم جمراً متقداً وتسلق محمود مدخنة حتى وصل إلى سقف الحريم ، وبذا أنقذت حياته ثم صعد العرش وأصبح يدعى السلطان محموداً الثانى المصلح .

وقد اشتهر بإصلاحات كثيرة وفى مقدمتها قضاؤه على الجنود الانكشارية فى مذبحة هائلة لعلها كانت المثال الذى احتذاه محمد على (باشا) الكبير فى قضائه على المماليك فى مصر .

وكان من أثر هذه المذبحة وامتلاء البوسفور بجثث الانكشارية أن أهالى إستامبول ظلوا أشهراً وهم يحجمون عن أكل السمك ، ولا شك أن السلطان محموداً قد أدى للدولة العثمانية خدمة جليلة بذلك العمل برغم ما فيه من قسوة ، وهو أيضاً الذى ألغى العمامة وأبدل بها الطربوش الذى ظل شعاراً للأتراك إلى ما قبل سنوات قليلة ولكنه مع إصلاحاته كلها كان مشهوراً بقسوته ففوق أمره بذبح الانكشارية عرف عنه أنه أيد مذبحة اليونان فى سنة ١٨٢١ وأنه أمر بإغراق خمس من حريم أخيه مصطفى . ويقول المؤرخون الغربيون إن لوالدته « إيميه » أكبر الأثر فى إصلاحاته ، فى حين

ينسبون قسوته إلى الدم التركي الذى ورثه عن أبيه !

ولعل أكبر دليل على تأثير والدته الفرنسية فيه وتوجيهها لسياسته أنه قلب لنابليون ظهر المجن منذ طلق هذا جوزفين قريبة أمه وصديقة صباها وهكذا باغته بعقد الصلح مع روسيا فاستطاعت أن توجه جيوشها المحشودة على الدانوب لتصد غارته على موسكو ، ولولا ذلك لما هزم نابليون فى روسيا هزيمته المنكرة ولتغيرت تلك الصفحة من تاريخ نابليون .

وماتت « إيميه » فى سنة ١٨١٧ فدفنت فى مقابر السلاطين بالآستانة ؛ وهكذا طويت حياة حافلة بالحوادث ، وختمت قصة كأروع ما يبتكره الخيال .

حديث إبليس

« هذه هديتي إليك يا ابنتي . . وتلك هديتي إلى أمك ، فخذى نصيبك ، وإياك أن تأكلى ما لأمك ! »

وأعطيتها تفاحتين ، احتفظت بالأولى لأنها لها ، وأسرعت إلى الثانية تأكل منها فى شره غبطة ، وكأنما نسيت أمرى ، أو أنساها حب الحياة ولذة التفاح أن تقنع بنصيبها ، وأن تعف عما لسواها ، فاقتربت منها فى هدوء وانتزعت من يدها التفاحة ، ثم أمرتها المرة الثانية أن تقدمها لأمها خالصة لها ، ولتأخذ منها ما تشاء ، فكلتاهما من بنات حواء التى اشتهت التفاح ، فى الجنة ، وحرم الله عليها شجرة التفاح ، ليمتحنها ، ولكنها سقطت مختارة ، أو مكرهة فى الامتحان ، ونسيت طاعة الله ، واستجابت لغواية الشيطان . . !

كذب إبليس عليها هذه الكذبة الخالدة التى دفعتها إلى الأكل من الشجرة المحرمة ، التى زعم لها أنها شجرة الخلد ، وشجرة الملك الذى لا يفنى ولا يبيد ، فصدقته لأنها تحب الحياة ، وتحرص على ملذاتها ، وأورثت أبناءها وبناتها هذا الحب العظيم . ولولا هذه الأكلة المشئومة لكنا الآن من أبناء الجنة ، لا من أبناء أهل الأرض المناكيد ، فقد بدأنا حياتنا فى الجنة — كما روى لنا المتقدمون — ولكن شاءت المقادير ، بل شاء الحظ العاثر بأسرتنا الإنسانية أن تكون أمنا — حواء طامعة أنانية ، وأبونا آدم عبيطاً خائباً . . !! فهبطنا من أعلى إلى أسفل ، ومن السعادة إلى الشقاء ، ومن كوكب الجنة إلى كوكبنا الأرضى .

مع إبليس

لقد ضاع منا نحن البشر هذا الموكب السعيد ، وفقدناه منذ كذب إبليس هذه الكذبة الكبرى على أمنا حواء ، وانخدع بها أبونا الطيب آدم ، غفر الله له ، وعليه السلام !

وقد ذكرت هذه الكذبة ، وأنا أكتب ، فلعنت إبليس ، وقلت لولا هذا الملعون لتغيرت حياتنا ، إلى حياة أخرى أسعد حظاً وأهنأ بالا ، وأكثر راحة ورزقاً ، وما كدت أنتهى من هذه الكلمات حتى رأيت نور الغرفة قد خبا شيئاً فشيئاً ، ثم ما زال يخبو ، حتى أظلم كل ما حولى ، وسمعت اضطراباً ، ثم رأيت شهاباً قد لمع ثم انفجر ، وتناثر شرار من حوالى ، ثم بدأ أمامى شبح رهيب ، ذو منظر كئيب ، له قرنان طويلان ، وعينان مخيفتان . ثم أخذ هذا الشبح يضحك ضحكاً مروعاً غبت من هوله عن شعورى ، وافتقدت نفسى ، وبعد برهة تنبهت إليه ، فراعتنى نظراته القاسية ، وشكله المفزع ، ولكنه أخذ يهدئ من روعى ، بصوت هامس كأنه الوسوسة ويقول : « لا تخف ، ولا تحزن ، ولا تبسط لسانك فى ذمى والسخط على . فقد أسأت إليكم حقاً يا بنى آدم بخروجكم من الجنة . وقد كان لكم فى الأرض عوض لو أنكم أحسنتم الحياة فيها وتعاونتم فى عمرانها واستغلال ما فيها من خيرات لا تنفد ، وأرزاق لا تزول ! »

قلت لإبليس : « ومن أين لك هذا المنطق العجيب ، وقد أخرجتنا من الجنة لنحرم من اللذة والنعيم ، ونشقى بالتعب والجهاد المقيم ، على هذه الأرض السوداء . إن حياة الجنة حياة راحة واطمئنان وسكون ، وحياة الأرض حياة جهاد ومتاعب ! »

فقال : « لقد أقمتم على الأرض — برغم المصاعب والمتاعب — حضارات باهرة ، ومدنيات زاهرة تفوق ما فى الجنة من طعام وشراب ، وكواعب أتراب ، ونوم وسكون ، وخمول وركون ، فقد خلقتم يا بنى آدم للحركة

والعمل ، لا للبطالة والكسل ، ولو كنتم قد عشتم فى الجنة ، فى تلك الحياة الخاملة ، لبلغتم اليوم الذى فيه تسأمون الحياة التى فيها تتخاصمون ، لأنكم مطبوعون على حب التنقل من حال إلى حال ، والتحول من حياة إلى حياة ، ولو كانت الثانية أتعس وأشقى » .

فقلت لإبليس : « وماذا يهمك أنت من الحضارات الباهرة ، وعمران الأرض . ثم ماذا لو كنت تركتنا وشأننا فى الجنة ، ولم تنفس على أبينا آدم قربه من الله واختيار الله له دونك . فلا ريب أننا كنا وقتئذ نستغنى عن هذه الحضارات الباهرة وتلك المدنيات الزاهرة بما أعد الله من قصور عالية ، وأرزاق دانية ، فيها خيرات حسان ولؤلؤ ومرجان ، وقاصرات الطرف لم يطمثهن إنس ولا جان . ولكن أخذ منك الحسد مأخذه ، واستول عليك الحقد وحب الانتقام ، فأغويت أمنا حواء ! »

فقال إبليس : « نعم أغويت أمكم بالأكل من الشجرة ، وأغوت هى أباكم وما زالت هى الغاوية ، وقد أخرجتكم أنا من الجنة لحاجة فى نفسى ، فأسأتم أنتم إلى أنفسكم ، ولو أحسنتم الحياة لما فقدتم على الأرض شيئاً من نعيم الجنة ، ولقد ظلمتم إبليس ، واتهمتموه بمساوئكم . وعلم الله أننى وما اخترعتم لى من أولاد وأحفاد لا أستطيع أن أنهض بكل هذه المساوئ التى سبقتمونى إليها ، ونافستمونى فى ابتكارها حتى اعترفت لكم يا بنى آدم بالسبق ، وأقررت لكم بالعجز ، وأعلنت — أنا إبليس — الإفلاس . . !

« ولم أفعلها — علم الله — إلا مرة واحدة حين أغويت أمكم ، فتعلمت منى الغواية وأرضعتكم إياها . أما أبوكم الرجل الطيب فقد كان ضحية هذه اللعنة — لعنة المرأة — التى بقيت بينكم ، وستبقى إلى يوم تبعثون ، وقد صدق أحد قضاتكم حين قال : "فتش عن المرأة" فهى التى أخرجتكم

من جنة السماء ، وهبطت بكم إلى جحيم الأرض . ونصيحتى لكم ، وهى النصيحة الوحيدة لى فى هذه الدنيا ، إذا صعدتم إلى الكواكب ألا تأخذوا معكم حواء ! » .

فقلت له : « عجبت لك ناصحاً ، وإن كنت لا أعهد فيك غير الكذب والبهتان ! . . فهل تقص على قصتك وما حدث لأمنا وأبينا من غوايتك ، وليس الراوى كشاهد العيان » . . .

قصة اللعنة

قال إبليس : « سأروى لك قصة هذه اللعنة ، ولك أن تصدقنى إذا شئت ، أو تعدنى من الكاذبين ، فأنتم البشر قد أسأتم الظن بى ، وبسطتم ألسنتكم الطويلة فى شأنى ، ومن المحال أن تحسنوا الظن بأقوالى يوماً من الأيام ، لأنكم ورثتم عداوتى على مر العصور والأجيال ! »

قلت : « هات ما عندك ، فإذا لم يكن فى قولك الصدق فليكن فيه الخيال أو بعض الخيال ، فإن فى الخيال متعة وتسلية ، وأنا أريد أن أمتع القراء وأسليهم » .

قال إبليس : « لما أراد الله خلق آدم أوحى إلى " الأرض " أنى خالق بشراً سوياً ، سيكون له أبناء وبنون منهم من يطيعنى ، ومنهم من يعصينى ، فمن أطاعنى أدخلته الجنة ، ومن عصانى أدخلته النار » .

قالت الأرض : « أتخلق يا مولاى منى خلقاً يكون للنار ؟ »

قال : « نعم » .

فبكت الأرض ، فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة ، فبعث الله إليها جبريل ليأتيه بقبضة من أحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها . فلما أتاها ليقبض منها قبضة لخلق آدم ، قالت : « أعوذ بعزة الله الذى أرسلك إلىّ ألا تأخذ منى شيئاً » .

فرجع جبريل وقال : « يا رب استعاذت الأرض بك منى ، فلم أستطع أن أقبض منها شيئاً » .

فبعث الله ميكائيل وقال : « انطلق إلى الأرض ، فاقبض قبضة منها » فلما أتاها ميكائيل ليقبض منها قالت الأرض له ما قالته لجبريل، فرجع إلى ربه فقال له ما قالته له الأرض . فقال الله لعزرائيل : « انطلق أنت ، فأتنى بقبضة منها طوعاً أو كرهاً ، وإذا استعاذت منك فاستعذ منها، ولا تكن من الخائفين » ، فطار عزرائيل إلى الأرض فى برق ورعد وعاصفة رائعة وصواعق مروعة ، وصاح بالأرض صيحة رهيبة هزتها هزاً عنيفاً ، وزلزلها زلزالا ما زال يعاودها كمرض من حين إلى حين ، فقال لها : « أعطنى ما أمرنى به الله » فقالت له : « أعوذ بعزة الله الذى أرسلك ألا تأخذ منى شيئاً » فأجابها : « وأنا أعوذ بعزته ألا أعصى له أمراً » ثم هبط عليها ، وجال بأرجائها جولات خاطفة ، قبض فيها قبضة من جميع بقاعها — من عذبها وملحها ، وحلوها ومرها ، وطيبها وخبيثها ، وسهلها وجبالها ، ثم صعد إلى السماء ، فسأله ربه عز وجل — وهو أعلم بما صنع — فأجابه بما قالته الأرض وما قاله لها ، فقال سبحانه وتعالى :

« وعزتى وجلالى لأخلقن مما جئت به خلقاً كثيراً ، ولأسلطنك على قبض أرواحهم لقلة ما عندك من الرحمة » . ثم جعل الله تلك القبضة نصفها فى الجنة ، ونصفها فى النار . وتركها ما شاء الله، ثم أخرجها ، فعجنها طيناً لازباً مدة ، ثم حمأ مسنوناً مدة ، ثم صلصالاً مدة ثالثة لا أدرى مداها ، ثم جعلها جسداً سوياً أقامه على باب الجنة تمثالا جميلا. فكانت الملائكة تمر به وتعجب من هذا المخلوق الذى أبدعه الله ! !

قلت لإبليس : « ما هذه الأقاويل ؟ . . أفلا تزال على عهدك تاجر الكذب والخرافة والأباطيل ؟ »

قال إبليس : « وهل أروى لك إلا ما صدقني فى روايته بعض مؤرخيكم الأقدمين الذين يحشدون فى كتبهم هذه الأوهام والأساطير » !

قلت : « لقد شوقتنى إلى أسطورة هذا التمثال الجميل ، فماذا بعد إقامته على باب الجنة ؟ »

قال إبليس : « . . مررت يوماً على الجنة أنا وجماعة من الملائكة ، فشهدنا جسما عجيباً واقفاً على بابها ، لا حركة فيه ولا روح ، فدفعناه ، فكاد يندفع واولا بعض السدنة لسقط وتهشم ! ! »

قلت : « إذن كنا ضعنا ياإبليس ، وما كنت أنا ولا غيرى نرى هذه الدنيا !! »

فضحك إبليس وقال : « نعم ، فقد كان جسمه كالفخار ، سريع الانكسار ، ولذلك نظرت إليه باستخفاف ، وقلت للملائكة : ما هذا المخلوق العجيب ؟ وماذا أنتم صانعون إذا نفضله الله عليكم ؟ » .

فقالوا جميعاً : « نطيع الله ولا نعصيه » فقلت لهم : « أما أنا فأرانى خيراً منه وأشرف خلقاً . خالقنى الله من نار ، وخلق هذا من طين . والنار أسمى من الطين ، وقد صدق شاعركم بشارحين انتصر لى على أبيكم فقال :

إبليس أفضل من أبيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الأشرار
النار معدنه وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النار

« ثم أضمرت فى نفسى لأعصين الله إذا فضل هذا المخلوق على ! »

وبعد عرض آدم على باب الجنة هذا العرض الصامت ، أمر الله الروح أن تسرى فى جسده ، فقالت :

« يارب كيف أسرى فى هذا الجسد الجامد » . فقال لها : « ادخليه كرهاً ، وستخرجين منه كرهاً » فدخلت من رأسه حتى وصلت إلى عينيه ، فجعل آدم ينظر إلى سائر جسده . ثم سارت إلى أن وصلت إلى منخريه فعطس . . !

فقلت لإبليس ضاحكاً : « إلى هنا وتوقف قليلا ! » ثم عطست أنا بعدوى الحديث من هذه العطسة الأولى . أو الصدمة الأولى من صدمات الحياة الباردة على الدوام !

ثم قلت لإبليس : « وماذا حدث بعد ما عطس آدم .. يرحمه الله ؟ »

قال : ثم سارت الروح فى جسده حتى وصلت إلى لسانه ، فقال آدم : « الحمد لله رب العالمين » وكان هذا الحمد هو أول حمد نطق به إنسان ، فناداه الله سبحانه : « رحمك الله أبا محمد ، ولهذا خلقتك !! »

ثم لما بلغت الروح الركبتين ، تعجل آدم ، وأراد أن ينهض فلم يستطع فقال تعالى : « خلق الإنسان من عجل » !

ولما بلغت الروح الساقين فالقدمين استوى آدم بشراً سوياً ، وإنساناً حيًّا كاملا ، يتكلم ويتحرك . طوله ستون ذراعاً ، قد جعل الله عقله فى رأسه ، وصرامته فى نفسه ، وعطفه فى قلبه ، ثم علمه الأسماء كلها ، وعرضها على الملائكة ، فعجزوا عن معرفتها ، وأجابوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

« وأمرنا الله أن نسجد لآدم ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا أنا ، استكبرت وكنت من الكافرين ، وحسدت آدم لهذه المنزلة الكريمة ، فكنت من الخاسرين » .

قلت لإبليس : « لقد تكبرت على طاعة الله ، فكنت أجرأ المتكبرين ، وتظاهرت أمامه بحسدك لآدم وحقدك عليه ، فكنت أشجع الحاسدين ! »

فقال : « لا تلمنى فإن الدافع لحسدى وحقدى هو ما أشعر به من عزة وكرامة لم أفرط فيهما لملك ولا شيطان ، فلو أننى سجدت لهذا المخلوق

الضعيف الذى خلق من تراب ، ويعود إلى التراب ، لأهدرت كرامتى ، وأذللت نفسى . ولقد اخترت النار وطردت من الجنة .. ولأن أكون عزيزاً كريماً فى جهنم ، خير لى من أن أكون ذليلا فى الجنة !

ثم لماذا أسجد لغير الله ؟ » . . . !

فقلت له : « لا أريد أن أدخل معك فى مثل هذه الفلسفة وهذا الحوار ، وقد أصبحت من أهل النار . وكم غلب الطيبين الأشرار . . فخذ معى فى حديثك . وقص علينا من غريبك ، وألق ما فى جعبتك من عجائب ! »

حواء والشجرة

قال إبليس : وبعد أن استوى آدم بشراً سوياً ، أسكنه الله الجنة وحده ، فشعر بالحزن والوحشة ، وعلم الله ما يحب آدم ويسره ، ويسليه ويؤنسه ، فألقى عليه النوم ذات يوم ، فراح فى حلم لذيذ ، فأخذ الله ضلعاً من أضلاعه اليسرى التى تجاور القلب مصدر العطف والحب ، وخلق منه زوجته حواء !

ولما استيقظ من منامه ، أبصرها بجواره ، فاغتبط برؤيتها . وسألها : « من أنت ؟ » .

فقالت : « زوجتك حواء » .

فاحتضنها وقبلها ، فابتسمت له ، فكان فى بسمتها هذا السحر الذى أخذ لبه ، وسلبه عقله ، وأضعف إرادته ، فجرته كلما شاءت من أذنه إلى حيث تشاء من لذة وشهوات ، فجعل يقدم لها ما تريد حتى إذا وصلا إلى شجرة التفاح ، سارت إليه أن يقطف لها تفاحة ، فسمعا هاتفاً يقول : « يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا من حيث

شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين » .

فاكتأبت حواء ، واكتأب آدم لاكتئابها ، وكانت كلما مرت عليها تنظر إليها فى شوق ، وتخشى أن تأكل منها حتى لا تعصى أمر الله ، ثم يغالبها الشوق فيطغى على خوفها ، وتدنو من الشجرة لتأخذ منها ما تريد فيدفعها الخوف من الله فتنثنى وترجع إلى حيث آدم ، فيراها كئيبة حزينة ، فيحزن لحزنها ، ويهم أن يحقق لها مناها ولكنه يذكر أمر الله ، فيطرق خائفاً .

وكنت منذ طردت من الجنة أمر ببابها على الدوام عسى أن أصيب لحظة من سدنتها ، فأعود إليها ، فعلمت من صديقى « الحية » نبأ هذه الشجرة وتحريم ثمرتها على آدم وحواء . وكانت الحية دابة جميلة من دواب الجنة ذات أربع قوائم وجلد مزخرف جميل ، فطلبت منها ذات يوم أن تحملنى فى فمها إلى داخل الجنة ، فتحولت إلى هواء ودخلت بى دون أن يفطن خزنة الجنة لهذه الحيلة الشيطانية واختفيت فى ركن من الأركان حتى أقبل آدم ومعه حواء يرتاضان فى هذا النعيم ، فما كادا يقتربان منى حتى أجهشت بالبكاء والنحيب ، فأسرعا إلىّ فى فزع ودهشة — وهما لا يعلمان أنى إبليس — وقالا : « ماذا يبكيك أيها الشيخ وأنت هنا فى دار النعيم ؟ »

قلت لهما : « لماذا لا أبكى ، وقد حرم الله الأكل من هذه الشجرة — شجرة الخلد — التى لو ذاق أحد ثمرتها ما مات أبداً ، وكان من الخالدين » !

وأشرت إلى شجرة التفاح . .

فنظرت حواء إلى آدم ، وقالت : « ألم أقل لك إنها شجرة جميلة تجتذب النفوس ، وقد يكون فيها سر من الأسرار . . » !

ثم سكتت وسكت آدم . وبدت عليهما الكآبة ، وانصرفا من أمامى يسيطر عليهما الصمت الحزين !

وبعد أيام كانا يسيران بين رياض الجنة ، وقد أمسك آدم بذراع حواء وهى سائرة فى دلال وجمال ، حتى إذا اقتربا من شجرة التفاح نسيت آدم بجوارها وخلعت منه ذراعها ، وأقبلت إليها تنظر إلى ثمراتها الجميلة الدانية فى شهوة ولهفة وكنت مختبئاً بجوار الشجرة ، فخرجت إليها ، وآدم عن كثب ينظر إلينا ، فسألتنى حواء عن حالى ، فأعدت عليها بكائى وذكرت لها حزنى لما ينتظرنا من الموت وفراق هذا النعيم .

وكان قد اقترب منا آدم ، فالتفت إليه وقلت : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » فلم يستمع إلى ، وكاد يمضى عنا ، لولا أن حواء نظرت إليه نظرة قاسية أوقفته طائعاً فى مكانه ! !

وقلت فى نفسى إن إغرائى أنا لا يفيد هذا المخلوق الخائف المتردد .. فلتكن المرأة وسيلتى إليه . فسهل على إغراؤها بما ركب فى طبيعتها من حب الحياة والميل إلى الفساد والعصيان . وسهل عليها هى إغراؤه بما ركب فى طبيعته من حب المرأة والضعف أمام أنوثتها ، والسعى لإرضائها وتوفير السعادة والاطمئنان لها بما استطاع من تضحية وجهود .

وأعدت قولى على حواء ، وأخذت أغريها وأؤكد لها أن فى تلك الشجرة سر الخلود . ودنوت منها واقتطفت تفاحة واحدة ، أكلتها أمامها ، فجعلت تنظر إلى وإلى التفاحة ، ثم تنظر إلى هذه التفاحات الكثيرة التى تزدان بها الشجرة ، وكأنها الياقوت الأحمر معلقاً فى أغصان وارفة من الفيروز ، أو كأنها خدور العذراء تشرق بنورها بين الورود الحمراء ؛ وسألتنى حواء : كم تعيش من العمر لو أكلت من هذا التفاح؟ وكم تتمتع بالشباب هى وزوجها لو أنها عصت أمر الله ؟ فالشباب أحب شىء إلى الإنسان ، وهو زمن اللهو والمتعة والجمال ، وهى تريد المتعة وتريد

الجمال ، وأى متعة فى هذا العيش الهانئ الرغيد ! ورويت لها كم أكلت أنا من تلك الشجرة وكم عشت أنا من آلاف السنين . وقد عصيت أمر الله بامتناعى عن السجود لآدم ، ولكن الله غفور رحيم ! ! .

وأطرب حواء ما سمعت ، وأغراها حب الحياة ، والعيش فى ظلال الشباب على الدوام ، وأقبلت على الشجرة ، واقتطفت تفاحة ، وأسرعت تلتهمها فى لهفة ، ثم اقتطفت أخرى وناولتها إلى الرجل الطيب آدم ، فأجفل ، وأراد أن يمتنع ، فنظرت إليه نظرة نسى فيها نفسه وعصى فيها أمر ربه ، فتناول التفاحة من يدها وأكلها ، وما كادا يأكلان التفاح حتى تناثر ما عليهما من زينة وثياب ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليستترا ما تعرى من جسميهما ، وسمعا هاتفاً يقول : « اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو . . ! ! »

فهبطنا جميعاً مطرودين من الجنة : آدم ، وحواء ، وأنا ، والحية وقد مسخها الله على تلك الصورة الشنعاء !

وسكت إبليس . . ثم قال :

ولا أدرى كيف هبطنا من السماء ، وكنا فى الجنة البعيدة المدى ، ولا على أى شىء هبطنا إلى الكوكب الأرضى . ولماذا هبطنا إلى الأرض ، ولم نهبط إلى كوكب آخر من المجموعة الشمسية . وقد كان من الممكن — لو شاء الله — أن نهبط إلى أحد الكواكب الأخرى . .

وحينئذ كان علماؤكم فى هذا العصر سيبحثون السفر إلى الأرض بدل السفر إلى القمر والمريخ . . ! »

قلت لإبليس : « وهل شجرة التفاح نزلت معكم من السماء ؟ »

فابتسم ، ولم يتكلم . . وغاب شبحه عنى فى الظلام ! ! !

آسد الأسود

قصة فكاهية مترجمة من الأدب الفارسى

« الشيخ قاصد » رجل مزارع يملك عشرين فداناً يزرعها حبوباً وقليلا من الفاكهة والخضراوات . وقد بسط الله له فى رزقه ، فلم يكن عليه ما يكون على مثله من الفلاحين من أقساط المرابين ، وفوق ذلك لم يرزق أولاداً فيحتمل نفقات تربيتهم وتعليمهم وما يطرأ عليهم من أمراض وأحداث . ومع ذلك ، كان شحيحاً جداً يحاسب على الكسرة ويهم بالمليم .

وكان له « حمار » وحيد يحمل عليه كل ما يأتى به من محصول الأرض ، ولا يدع له فرصة للغذاء أو الراحة طول يومه إلا غراراً ، حتى هزل الحمار المسكين وضعف عن القيام بما يكلفه به من حمل تلك الأثقال الكبيرة التى لا ينال من ورائها إلا الجوع والنصب الدائم .

ولما وجد « الشيخ قاصد » أن حماره أصبح عاجزاً كل العجز عن القيام بحاجاته الزراعية وغيرها ، وضعه على عربة ثم سار به إلى خارج القرية ، حيث الصحراء الواسعة ، ورمى به على الأرض جثة حية ، لا تستطيع حراكاً ، وظن « الشيخ قاصد » أنه بذلك قد نجا من شىء قد يكلفه نفقة دون أن ينال منه منفعة . . !

رجع « الشيخ قاصد » إلى قريته حامداً الله على أن تخلص من هذا الإنفاق على هذا الحيوان الذى لا نفع فيه . وبقى الحمار المسكين على الأرض يتلفت هنا وهناك عما يقوته ويسد رمقه ، وبينما هو فى هذه الحال وجد بالقرب منه بعض الحشائش الخضراء فمد رقبته إليها ، واستطاع بذلك أن يلتهم منها قدراً أعاد إلى جسمه الحياة وجعل يتمالك نفسه حتى وقف وأخذ يتهادى على الأرض ، ويلتهم كل ما يصادفه من طعام .

وبقى على ذلك مدة عادت إليه فيها صحته وقويت أعضاؤه واشتدت قوائمه ، فصار يروح ويجىء كالحيوان الوحشى فى قوته وسرعة حركته ، خصوصاً وقد ألف عيشة الفراغ الخالى من المتاعب والتكليف ، واستراح إلى تلك الغابات التى يأوى إليها حيث لا مالك له يكدر عليه صفو الحياة وقد أعجب بنفسه ، ومشى شامخاً بأنفه . . !

وكان بالقرب منه مأوى لأسد لم يقع يوماً نظره على حمار أهلى ؛ فلما قدم الحمار إلى هذا المكان لم يقترب الأسد منه اتقاء لما قد يحدث بينهما من الشر ، وهو لم يختبر قوته ولم يعرف عنه شيئاً .

وذات يوم فكر الأسد أن يذهب إلى هذا الحمار ويتنازل له عن الملك ، ويصبح هو من حاشيته لأنه وجد فيه صفات لا توجد بنفسه كطول الأذنين وكبر الرأس وارتفاع القوائم . . !

وسار الأسد إلى حيث يقطن الحمار ، فما كاد يقترب منه حتى رفع علم السلام بيده وخفض رأسه . فلما رأى الحمار هذه الهدنة الغريبة من جانب الأسد اغتر بنفسه ، وشمخ بأنفه ، وأظهر صولة وعظمة ، وسأل الأسد عما يريد أن يرفعه إليه من المطالب ، فقدم له الأسد تنازله عن عرشه وعرض عليه أن يكون كأحد أعوانه وخدامه ، فقابل هذه الطاعة من جانب الأسد بالرضا والامتنان ، وسمح له أن يكون خادمه أنى ذهب أو أقام . . ! !

* * *

مكث الأسد فى خدمة الحمار يؤدى كل ما يصدر إليه من الأوامر والتعليمات بكل عناية وولاء . وذات يوم كانا سائرين فى الطريق فلقيا شجرة عالية ذات أغصان كثيرة الأوراق ، ولكنها فى ارتفاع لا يستطيع أن يصل إليه فم الحمار . فلما رأى الأسد أن مليكه يريد أن يتناول من ورق هذه الشجرة ، وثب وثبة عالية أمسك فيها بأحد الأغصان وجذبه إلى الأرض حتى تمكن الحمار من أن يقبض عليه بفمه قبضة قوية ، ولما رأى الأسد أن الحمار قد أمسك بالغصن تخلى هو عنه دون أن ينزعه من الشجرة ، ولكن مرونة الغصن تغلبت على الحمار فأعادت الغصن إلى ارتفاعه حاملا الحمار من الأرض إلى أعلى .

فبقى الحمار معلقاً فى الغصن على ارتفاع من الأرض لا يستطيع أن يقذف بنفسه منه . فلما رأى الأسد أن مليكه « الحمار » فى خطر ، وثب بقوة إلى حيث الغصن ، واجتذبه إلى الأرض ، حتى نزل الحمار سالماً . غير أن الحمار بعد أن استقر فى مكانه نظر إلى الأسد فى غضب وحنق وقال له :

« من الذى أمرك أن تعمل هذا العمل ؟ هل طلبت منك أن تنزلنى من فوق الغصن ؟ »

فقال له الأسد :

« عفواً يا مولاى لقد رأيتك فى خطر فجذبت الغصن لكى تنزل إلى الأرض سالماً »

فقال له الحمار :

« كلا . لم أكن فى خطر ، إننى أردت أن أتمرجح قليلا على هذا الغصن فى الهواء ترويحاً لنفسى ، فإياك أن تفعل مثل هذا الفعل مرة أخرى دون أمر أو إشارة منى » .

فأطرق الأسد طائعاً وسمع لما أمر به مليكه ، ثم سار وراءه يجتاز

الأحراش والغابات ، والقفار وهو قائم بخدمته يدافع عنه ويجلب له الطعام ويحرسه إذا غفل أو نام .

وذات يوم كانا سائرين فى الطريق فاعترض سيرهما نهر جار أرادا أن يجتازاه فدفع الأسد نفسه ووثب وثبة انتقل إلى الشاطئ الآخر ، فلما رآه الحمار قد وثب هذه الوثبة جمع كل قوته وشمر عن ساعده ، ودفع بنفسه إلى حيث الشاطئ الآخر كما فعل الأسد ، إلا أن قواه خانته فى وسط الطريق فسقط على أم رأسه فى النهر ، فحمله التيار الجارى بسرعة ، وصار يطفو ويرسب فى الماء فخاف الأسد عليه الغرق ، فرمى بنفسه فى النهر وراءه حتى أمسك به وجذبه إلى الشاطئ وخرجا معاً سالمين ، وظن الأسد أنه بهذا العمل قد أدى واجباً ينال عليه من مليكه أحسن الجزاء .

ولكن الحمار — قاتل الله غروره — ما وصل الشاطئ وعرف أنه صار فى أمان وسلامة حتى نظر إلى الأسد نظرة نارية تنم على ما بنفسه من الحنق الشديد ، وقال للأسد :

« ألم أقل لك لا تفعل شيئاً إلا إذا أصدرت إليك أمراً أو إشارة ؟ »

فأجابه الأسد فى اعتذار :

« عفواً يا مولاى ، لقد رأيتك فى خطر وخشيت عليك الغرق » .

فقال الحمار :

« كلا . لم أكن فى خطر ، إننى أردت أن أرتاض فى النهر قليلا ، فأنعش بمياهه جسمى ، ولكنى سأعفو عنك هذه المرة أيضاً وإياك أن تعود لمثلها أبداً » .

فأطرق الأسد فى خضوع وطاعة . . ثم برحا النهر وسارا فى طريقهما حتى وصلا إلى ظل شجرة عالية ، فنام الحمار ، وقعد الأسد يحرسه ، وبينما كان الحمار غارقاً فى نومه فكر الأسد فى الفرار من هذه المعيشة

الحمارية التى لم يجد فيها راحة ولا شكراً .

وقام من جانب الحمار يتسلل فى خفة وهدوء وما ابتعد عنه حتى عدا عدواً سريعاً لاجئاً إلى أحد الكهوف ! ! . .

وإنه لكذلك وإذا بضبع داخل عليه ، فحياه تحية المسود للسيد ، وجلس بجانبه يتحدث إليه ، فأخبره الأسد بقصته مع الحمار ، غير أنه لم يذكر له اسمه ، فطلب الضبع من الأسد أن يذكر له أوصافه ، فأخذ يسرد عليه أوصافه الخلقية والجسمية ، فقال له الضبع : « أظن أن هذه الأوصاف تنطبق على الحمار » فقال الأسد : « كلا ، إنه ليس حماراً بل أسد الأسود » فعارضه الضبع وأقسم أنه هو الحمار بعينه ، وعرض على الأسد أن يأمره بالذهاب إليه ليفترسه ، ويأتى له برأسه . فنهاه الأسد عن هذا العمل مخافة أن يعرض نفسه للهلاك ، ولكن الضبع صمم على الذهاب إلى الحمار فسمح له الأسد أخيراً بالذهاب ومكث فى مكانه ينتظر ما سيكون .

* * *

سار الضبع إلى الحمار ، حتى بلغ مكانه ، فلما اقترب منه لمحه الحمار ، وكان قد استيقظ من نومه ، فجمع مقدمتيه ومؤخرتيه إلى بطنه وتظاهر بالمرض ، ثم قال للضبع فى مكر ودهاء قبل أن يقترب منه : « إن بقدمى الخلفية اليمنى شوكة صغيرة ولكنها تؤلمنى ، فإذا أمكنك أن تنزعها منها قدمت نفسى لك طائعاً مختاراً ، وإذا لم تفعل ، فعليك أن تقدم لى الطاعة » .

فاستهان الضبع بهذه الشوكة ورضى بهذا الشرط ، ثم اقترب من قدم الحمار لينزع الشوكة منها ، وما كاد يفعل حتى جمع الحمار كل قوته فى قدميه الخلفيتين ورفسه رفسة شديدة أسقطت أسنانه كلها ،

فتراجع الضبع المسكين ، وفر صارخاً شاتماً نفسه لغباوته التى أوردته هذا المورد المؤلم وجعل يقول :

« ما لى أنا وما لهذه الشوكة . . هل كنت طبيباً ؟ . . أو كان أبى جراحاً أو هل اشتغلت صبى مزين أطلع الشوك من أيدى الزبائن . . حقاً أنا غبى ! . . »

ومضى الضبع المسكين إلى الأسد غارقاً فى دمائه . فلما رآه الأسد على هذه الصورة قال له : « أولم أقل لك إنه " أسد الأسود " ، وليس حماراً ؟ » فقال له : « نعم صدقت ، لقد تعجلت فى حكمى فلقيت من وراء ذلك شراً » .

أما الحمار فإنه فرح بهذا النصر المبين ، وقام يختال معجباً بنفسه ، وسار فى ثبات وشجاعة غير خاش ما قد يصادفه من خطر . . وكيف لا ، وهو الذى استخدم الأسد مدة ، وضرب الضبع ضربة أطارت أسنانه ، بل كيف لا يطير فرحاً وقد نجا من شقائه الأول وأصبح فى بحبوحة من الأمن والرخاء .

وبينما هو على هذه الحال السارة لقيه فى طريقه جمل شارد من شقاء مالكه منذ مدة ، فسأل كل منهما صاحبه عن خبره ، فأفضى كل منهما للآخر بقصته ، وفى نهاية الحديث اتفقا على أن يعيشا معاً .

مرت على هذه العيشة أيام ، فكانا يخرجان معاً فيأكلان ويشربان ، وذات يوم كانا سائرين فى الطريق فلمحا من بعد قافلة تسير برجالها وكان معهم بعض الحمير ، وإنهما لكذلك وإذا بأحد حمير القافلة ينهق نهقة عالية ، فقال الحمار للجمل : « ما أحسن هذا الغناء ، إنى يا صاحبى أريد أن أغنى مثله » فقال له الجمل : « إياك أن تفعل ، وإلا هديت هؤلاء الرجال إلى طريقنا فنعود إلى شقائنا الأول » ؛ فقال له الحمار : « ولكن نفسى تلح على فى ذلك » فقال له الجمل : « تغلب على

نفسك بقدر ما تستطيع » ، فقال له الحمار : « كلا ، كلا ، لا أقدر » ونهق نهقة قوية نبهت رجال القافلة ، فالتفتوا نحوها ، فأبصروا الحمار والجمل واقفين معاً ، فهرعوا نحوهما وأمسكوا بهما ، واقتادوهما إلى القافلة ووضعوا عليهما بعض الأحمال .

فندم الحمار على هذه الفعلة حيث لا ينفع الندم ، أما الجمل فإنه تلقى هذا الحادث بصبر وجلد وغيظ مضمراً للحمار فى نفسه أمراً . وسارت القافلة ، وسار الحمار والجمل معها . وفى أثناء الطريق تظاهر الحمار بعجزه عن حمل ما وضعوه فوق ظهره ، وتوقف فى الطريق فخشى الرجال أن يؤخرهم الحمار عن السير ، فرفعوا ما فوق ظهره من الأحمال ، ووضعوه فوق ظهر الجمل ، فلم يظهر الجمل ضجراً أو تململا وسار صامتاً لا يأتى بأية إشارة أو حركة .

غير أن الحمار لم يكنه أنهم رفعوا عنه حمله ، بل أراد أن يستعمل مكره لينجو بنفسه من الشقاء كما نجا فى المرة الأولى ، فتظاهر بالعجز عن السير وتوقف فى الطريق ، وظن بذلك أن رجال القافلة سيتركونه حيث أصبح عاجزاً عن السير والعمل ، ولكن لم يلبث أن رأى رجال القافلة قد حملوه بينهم ووضعوه فوق ظهر زميله الجمل . فصار الجمل المسكين حاملا مع الحمار حملين ، ولكنه لم يظهر أيضاً ضجراً أو تململا ، وسار فى صبر وثبات .

وبينما القافلة جادة فى سيرها أخذت تجتاز جبلا عالياً ، وصار الجمل الذى يحمل مع الحمار حملين يتثرب قليلا قليلا من حافة الجبل حتى أشرف على واد عميق فعرف أنه بأقل حركة يسقط ما عليه من الأحمال ، نادى الحمار المطمئن على ظهره : « إنى أريد أن أرقص يا صاحبى » ، فأجابه الحمار فى دهشة وخوف : « ترقص ؟ . . كيف

ذلك ونحن فى مكان لا يصلح للرقص ؟ » ، فقال له الجمل : « ولكن نفسى تلح علىّ فى ذلك » فقال له الحمار : « تغلب على نفسك بقدر ما تستطيع » ، فقال له الجمل : « كلا ، كلا ، لا أقدر ، وهل تغلبت على النهيق ؟ ! » ثم رقص رقصة هوى فيها الحمار إلى أسفل الوادى وذهب غير مأسوف على غروره ومكره . وكذلك جزاء كل مختال غرور . . !

بيت من ملح

عبد الله بن على أمير من أمراء بنى العباس الذين كان لهم من المقام والنفوذ بين قومهم ما جعلهم مقدمين على غيرهم من ذوى الجاه والسلطة بين العرب ، حتى كان ابن أخيه الخليفة المنصور يغض الطرف عن بعض زلاته نحوه اتقاء لما قد يقع من الفتنة بين العباسيين الذين لعبدالله منهم عمومة وأشياع كثيرون .

غير أن الخليفة المنصور كان كسائر الملوك يقلقه أن يرى بجانبه ذا جاه ونفوذ يحترم لأجلهما ويقدم فى مجتمعات القوم وحفلاتهم ، فكان يتربص بعمه عبد الله الدوائر ، وينتهز الفرص للقضاء على نفوذه كى يوفر لنفسه اطمئنانها ، ولقلبه راحته .

وذات يوم بلغ المنصور أن عمه عبد الله يسعى فى تقويض سلطته ، وينشر عنه أموراً لا تحتملها حراسة الملك ، ويتقول عليه بما يضعف هيبته ونفوذه بين الناس فاستفز ذلك المنصور ، ورأى الفرصة سانحة للقضاء على ما لعمه عبد الله من هيبة فى النفوس جعلت له شيعة وأنصاراً .

وسرعان ما احتال عليه فى عزله من قيادة بعض جيوشه ، ثم استدعاه إلى بغداد كى يأمن شر امتداد سلطته ونفوذه اللذين يخشى منهما على كيان ملكه ونظام حكومته فهاجت نفوس أشياع عبد الله غير أنهم لم يستطيعوا أن يعملوا عملا يخلص صاحبهم من يد المنصور وخافوا أن

يأتوا بحركة من شأنها أن تعرضهم لانتقام الحكومة واتهامهم بالاشتراك مع عبد الله فى المؤامرة ضد الخليفة المنصور . فكظموا غيظهم وكتموا أمرهم حتى تتاح لهم الفرصة لخلاص صاحبهم من يد خصمه .

غير أنهم أخذوا يحتالون سرًّا لهذه الغاية ، وجعلوا يستعملون عدة وسائل شيطانية كادت توصلهم إلى غرضهم لولا يقظة المنصور وحذره من إفلات فريسته التى كابد فى القبض عليها وأسرها مشقة كبيرة .

وكان والى الكوفة فى ذلك الوقت عيسى بن موسى بن عم الخليفة المنصور ، وكان بينه وبين الخليفة بعض الجفاء لما بلغه عنه من أمور أفسدت عقيدته فيه ، وصرفت عنه ميله ، فأراد الخليفة المنصور أن يدبر لعيسى وعمه مكيدة يذهبان ضحيتها فيستريح منهما ويتقى شرهما معاً . . !

فأمر باستدعاء ابن عمه عيسى من الكوفة ، فذهب إليه الرسول وبلغه دعوة أمير المؤمنين له ، فخالج عيسى بعض الشك فى أمره ، غير أنه تغلب على سوء الظن ، ورأى أن يسرع فى الذهاب إلى بغداد إجابة لطلب أمير المؤمنين .

سار عيسى إلى مدينة بغداد مقر الخلافة العباسية ، وما وصل إليها حتى تلقاه الخليفة المنصور بمظاهر الحفاوة والإجلال ، ثم أكرم مثواه ، وجعل يفسح له من مجلسه ويقربه إليه ، فمكث عيسى عنده بضعة أيام رأى فيها ما أقنعه بإخلاص أمير المؤمنين له وحبه إياه .

ولما وثق أمير المؤمنين من أن عيسى قد غرته تلك المظاهر ، وأيقن أنه هو الوالى المصطفى من بين سائر ولاة الخليفة ، استدعاه ذات يوم إلى مجلسه وقال له : « يابن العم إنى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ، ولا أرى سواك مساعداً على حمل ثقله ، فهل أنت فى موضع ثقتى بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى ؟ » فقال له عيسى بن موسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه »

فقال المنصور : « إن عمى وعماك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه، وفى قتله صلاح ملكنا ، فخذه إليك واقتله سرًّا » .

فاغتر عيسى بكلام أبى جعفر المنصور ، ووافقه على تدبيره ولم يفطن إلى ما حاكه له المنصور من المكيدة التى فيها القضاء على حياته .

تسلم عيسى بن موسى عمه من يد المنصور ، وسار به إلى الكوفة محل ولايته ، فعلم أشياع عبد الله بخبر انتقاله مع عيسى ابن أخيه ، وأيقنوا أن لا بد فى الأمر مكيدة حاكها المنصور للقضاء على عبد الله ، فقام عدة أفراد منهم سرًّا ليحاربوا هذه المكيدة ويقضوا عليها بالفشل، وقابلوا « يونس بن قرة » كاتب عيسى بن موسى ، وأفضوا إليه بخبر عبد الله بن على ، وأوصوه بمحاربة كل تدبير فيه للقضاء على حياته ، فوعدهم يونس بإجابة مطلبهم .

ولما استقر بعيسى المقام مع عمه فى الكوفة تذكر ما أمره به أمير المؤمنين من قتل عمه سرًّا ، وإخفاء أمره، فخالجه فى ذلك شك وتردد. ورأى أن يشاور فى الأمر أحد أخصائه ممن يثق بإخلاصه وحصافة رأيه ، فاستدعى « يونس » وكانت له ثقة بأمانته، وعقيدة صالحة فى إخلاصه ، وقال له : « يا يونس إن أمير المؤمنين قد دفع إلى بعمه عبد الله ، وأمرنى بقتله وإخفاء أمره ، فما رأيك فى ذلك وما عسى أن تشير به ؟ »

فتذكر يونس عند ذلك ما أنبأه به شيعة عبد الله ، ورأى الفرصة سانحة للعمل لنجاته ، وسرعان ما أجاب عيسى بن موسى قائلا : « أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك ، وعم أمير المؤمنين ، فإنك إن قتلته عرضت نفسك للقصاص ، وأرى لك أن تدخله فى مكان بدارك لا يصل إليه أحد ثم تتكتم أمره عن جميع من حولك ، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه ، وتجعل دونه مغالق وأبواباً ، ثم تظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته ، وأنفذت أمره فيه ، وانتهيت إلى العمل بطاعته ، فكأنى به

إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به ، وقتلت عمه ، أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد ، فإن اعترفت بأنك قتلته بأمره أنكر أمره لك ، وأخذك بقتله وقتلك به » .

فرأى عيسى بن موسى سداداً فيما رآه يونس ، ونفذ جميع ما أشار به .

* * *

علم المنصور سرًّا من عيسى أنه قتل عمه عبد الله فتظاهر بالرغبة فى الحج بعد ذلك ، وشد رحاله إليه تمويهاً على الناس كى يستطيع أن يدعى أنه سلم عمه عبد الله إلى ابن أخيه عيسى ليحفظه عنده حتى يتسلمه بعد رجوعه من زيارة بيت الله الحرام ، فإذا ما عجز عيسى عن تسليمه إليه ألزمه القصاص وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به كما تنبأ يونس لأميره عيسى بن موسى . . !

سار المنصور إلى الحج وغاب مدته عن بغداد ، ولما رجع واستقر فى نفسه أن عيسى قد قتل عمه دسّ إلى أعمامه إخوة عبد الله وحثهم سرًّا على أن يسألوه أن يفرج أمير المؤمنين عن أخيهم ، فجاءوا إليه ، وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم ، وطلبوا منه أن يفرج عن عبد الله ، فقال لهم : « نعم إن حقوقكم تقتضى إسعافكم بحاجتكم ، كيف وفيها صلة رحم ، وإحسان إلى من هو فى مقام الوالد » . . . !

ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته ، فقال له المنصور : « يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجى إلى الحج عمى عبد الله ليكون عندك فى منزلك إلى حين رجوعى » فقال عيسى : « قد فعلت يا أمير المؤمنين » فقال المنصور : « قد سألنى فيه أعمامك وقد رأيت الصفح عنه ، وقضاء حاجتهم وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه ، فأتنا به الساعة » ! !

فتظاهر عيسى بالتردد والاضطراب ، ثم قال له : « ألم تأمرنى بقتله

والمبادرة إلى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » ، فقال المنصور : « كذبت ، لم آمرك بذلك ، ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك » ثم أظهر الغيظ من عيسى وقال لأعمامه : « قد أقر بقتل أخيكم مدعياً أنى أمرته بقتله ، وقد كذب على » ، وقال الأعمام : « ادفعه إلينا يا أمير المؤمنين لنقتله به ونقتص منه » ، فقال المنصور : « شأنكم به » .

دفع المنصور عيسى بن موسى إلى أعمامه ليقتصوا منه جزاء قتله لعمه ، فأخذوه إلى « الرحبة » واجتمع الناس حوله ، وقام واحد من أعمامه وسل سيفه ليضربه به ، فقال له عيسى : « يا عم أفاعل أنت؟ » فقال : « إى والله ؛ كيف لا أقتلك وقد قتلت أخى ؟ ! » فقال لهم : « لا تعجلوا وردونى إلى أمير المؤمنين » فردوه إليه ، فلما مثل بين يديه قال عيسى : « يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلى بقتل عمى ، والذى دبرته لى قد عصمنى الله تعالى منه ، وهذا عمك باق حى لسوى ، فإن أمرتنى بدفعه إليهم دفعته الساعة » .

فأطرق المنصور وعلم أن ريح فكره لقيت إعصاراً ، وأن انفراده بتدبيره صادف خساراً ، ثم رفع رأسه وقال : « ائتنا به » فمضى عيسى وأحضر عبد الله ، فلما رآه المنصور قال لأعمامه : « اتركوه عندى وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً » ، فتركوه جميعاً وانصرفوا .

بقى عبد الله عند المنصور مدة معززاً مكرماً ، لا يخشى شيئاً وقد أمنه على نفسه وماله ، ولكنه لم يسمح له بالخروج من حوزته فى بغداد .

واطمأن أنصار عبد الله على حياته ، ولكنهم كانوا على الرغم من هذا الاطمئنان يخشون غدر المنصور ، ودسائس رجاله . وقد غدر بأبى مسلم الخراسانى قائد جيوش العباسيين فى خراسان ، وأول ناصر لهم ، وبانى دولتهم ، فلماذا لا يغدر بعبد الله ، وقد اعتقد أنه يفسد عليه ملكه ، وينافسه فى نفوذه ويحارب سلطانه .

وهذا ما حدث ، فإن المنصور لم يستطع أن يرى عبد الله بن على أكبر أمراء العباسيين سناً ، وأكثرهم أنصاراً ، حياً يخشاه ويخشى قوته ، وقد كان قائداً لجيوش الشام ، فأخذ يدبر له مكيدة ، لا تكشف غدره ، ولا تفضح أمره ، فأمر ببناء بيت جديد ، ودس سرًّا لرجاله أن يبنى على أساس من الملح ، فبنى هذا البيت بجوار قصر المنصور .

وبعد تمام بنائه دعا المنصور عبد الله بن على ، وأمره أن يسكنه ليكون بجواره ، فخضع إلى أمره ، وانتقل إلى هذا البيت ، وهو لا يدرى شيئاً ، وقد أسس بأثاث فاخر ، وأحيط بمظاهر الفخامة والروعة .

وفى فجر أحد الأيام أمر أبو جعفر المنصور رجاله أن يرسلوا الماء حول البيت ، فما كاد يغرق أساسه حتى ذاب من تحته الملح ، فسقطت جدرانه وتهدم على عبد الله ومن معه ، فقتلوا ، وأخرجت جثة عبد الله ، ودفن بمقابر باب الشام . . .

بنت فرعون

أسطورة مصرية طريفة يرجع تاريخها إلى سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد

أنا آهورى ابنة الملك « منيب بتاح » والرجل الذى ترونه مسجى بجوارى هو أخى « نينوفرك — بتاح » وقد ولدنا من أب واحد وأم واحدة ، ولم يكن لوالدينا من ذرية سوانا ، فلما بلغت سن الزواج قادونى إلى مجلس الملك فى الوقت الذى كان يستقبل فيه حريمه وكنت بين ذاك جميلة حسناء ، فقال الملك :

— انظروا ! لقد غدت ابنتنا آهورى امرأة ، وحل وقت زواجها ، فبمن نزوج ابنتنا آهورى . . ؟ !

وكنت أحب أخى من أعماق قلبى ، ولم أكن أبغى زوجاً سواه ، فأخبرت أمى بذلك فقالت هى للملك :

— إن ابنتنا آهورى تحب أخاها فلنزوجها له تبعاً للتقاليد !

فلما أن أتمت أمى حديثها قال لها الملك :

— إن لك ولدين فقط فهل تبغين زواجهما ، كل واحد للآخر ! أليس من الخير أن نزوج آهورى لابن رئيس جنودنا المشاة ، ونزوج نينوفرك — بتاح بابنة رئيس آخر من قادة جنودى ؟

— إذن فأنت تبغي معي شجاراً . إنه ليس لي سوى ولدين ، ولكن التقاليد تحتم زواج الأخ بأخته . . !

فقال فرعون لرئيس البيت الملكي :

— احملوا آهوري هذه الليلة إلى قصر أخيها مع جميع أصناف الهدايا الفاخرة !

وحملت كزوجة إلى قصر نينوفرك بتاح وأمر فرعون قومه أن يأتوا لي بمهر كبير من الذهب والفضة ، وحمل إلى جميع أهل البيت المالك الهدايا والمنح .

وأمضى نينوفرك نهاره معي في ولائم وحفلات ، واستقبل جميع أهل البيت المالك وأنفق الليل كله معي . . !

وسرعان ما حملت طفلا ، فطير الخبر إلى فرعون ، فابتهج قلبه وسر فؤاده ، وأخرج من خزائنه الملكية صنوف الجواهر الغالية وبعث إلى هدايا جميلة من الذهب والفضة .

وأنجبت الغلام الذي ترونه أمامي والذي أطلق عليه اسم « مابهيت » .

وبعد أيام كثيرة من هذا الحادث بدأ نينوفرك — وكان لا شيء يشغله في الحياة سوى التجول بين القبور في ممفيس — يقرأ ما هو مكتوب على مقابر الفراعنة وما هو مسطر فوق توابيت النساخ والسحرة ، لأنه كان يهتم بهذه الكتابات اهتماماً بالغاً .

وحدث بعد ذلك أن أقيم موكب تكريم للإله بتاح وذهب نينوفرك للصلاة ، وبينما كان في مؤخرة الموكب رآه رجل هرم فضحك :

فقال للرجل :

— لماذا تضحك مني ؟ !

— إنني لا أضحك منك . ولكنني لا أقوى على كتم الابتسام إذ أراك تأتي إلى هنا لتقرأ كتابات لا قوة فيها ! فإذا كنت تريد قراءة

كتابات حقاً فتعال معى وسوف أرسلك إلى مكان الكتاب الذى سطره « ثوث » بيده العلوية حينما هبط إلى الأرض مع غيره من الآلهة .

فى هذا الكتاب عزيمتان ، إذا تلوت الأولى سحرت السموات والأرض ومواطن الليل والجبال والمياه ، وتفهم ما يقوله الطير وتلفظه الثعابين ، وترى الأسماك فى قاع الماء لأن قوة علوية تسيطر على الماء الذى يعلوها .

وإذا قرأت العزيمة الثانية فإنك تتشكل بهيئتك التى تكون عليها فى الأرض بعد أن توارى ميتاً فى التراب .

أجل ! إنك ترى الشمس تعلو فى السماء فى موكبها الإلهى ، والقمر فى هيئته الحقيقية التى يبدو فيها !

— قل لى وحياة الملك عما تريده ، فأعطه لك إذا قدتنى إلى مكان ذلك الكتاب .

— أعطنى إذن مائة قطعة من الذهب لدفنى ومر بصنع تابوتين لى كما يصنع لأغنياء القسس !

وأمر نينوفرك أحد خدمه بأن يعطى القس مائة قطعة ذهباً ، وأمر بأن يصنع له تابوتان !

— إن الكتاب المقصود فى وسط النيل عند « قفط » فى صندوق من الحديد ، وفى هذا الصندوق الحديدى صندوق من البرونز وفى صندوق البرنز صندوق من خشب القرفة ، وفيه صندوق من العاج والأبنوس ، وفى هذا الصندوق آخر من الفضة فيه صندوق من الذهب تجد فيه الكتاب ، ويوجد عدد كبير من الثعابين والعقارب حول الصندوق المحتوى على الكتاب ، وكذلك يلتف حوله ثعبان خالد !

وبلغ من دهشة نينوفرك عند سماع هذه الأقوال أنه لم يدر مكانه من الدنيا فبرح المعبد وأخبرنى بما حدث ، وقال :

ــ سوف أذهب إلى « قفط » وأحضر الصندوق ثم لا أبرح أرض الشمال أبداً .

ورفعت يدى أحاول منع أخى عن الذهاب إلى أرض طيبة فلم يستمع إلى وذهب إلى فرعون يقص عليه ما قال القس فقال له أبوه :

ــ وما هى أمنية قلبك . . ؟ !

ــ أن أعطى السفينة الملكية تامة التجهيز والإعداد وسوف آخذ آهورى شقيقتى وطفلها مابهيت معى إلى الجنوب ، وسوف أحضر الكتاب ثم لا أبرح هذه الأرض .

وأعطى السفينة كما أرادها فركبناها إلى « قفط » حيث أقبل كبير كهنة إيزيس والكهنة إلى لقائنا ، فوقفوا أمام أخى ووقفت نساؤهم بين يدى ، فنزلنا إلى البر وذهبنا إلى معبد إيزيس والآلهة العظام وقدم نينوفرك ثوراً وأوزة وخمراً قرباناً لإيزيس والآلهة العظام ، ونزلنا فى بيت جميل حيث لبث أخى أربعة أيام فى ولائم واستقبالات مع الكهنة فى حين كانت زوجاتهم يحتفين بى .

* * *

وفى اليوم التالى أمر نينوفرك ــ بتاح بإحضار كمية من الشمع النقى فصنع منها قارباً ببحارته ومجاذيفه ، وتلا عليهم « عزيمة » نشرت فيهم الحياة والروح ، ثم ملأ السفينة الملكية رملاً واستأذنى وذهب .

وصاح أخى : « أيها المجدفون . . جدفوا بى إلى مكان الكتاب » فجعلوا يجدفون ليلا ونهاراً ثلاثة أيام وصل بعدها إلى المكان .

ووجد كمية كبيرة من الأفاعى والعقارب حول صندوق من الحديد وثعباناً هائلا يلتف حول الصندوق ، فتلا عزيمة سلب بها الحياة من الأفاعى والعقارب ، ثم هجم على الثعبان الهائل وقتله ولكنه عاد إلى الحياة بشكل جديد ، فهجم عليه أخى مرة أخرى وقتله فعاد إلى الحياة ثانية ، ولكن أخى شطره نصفين ووضع بين شطريه رمالا ، فمات الثعبان ولم يعد إلى الحياة .

وذهب نينوفرك — بتاح بعد ذلك إلى مكان الصندوق فوجده مصنوعاً من الحديد فلما فتحه وجد صندوقاً من البرونز فيه صندوق من خشب القرفة ، فلما فتح هذا الصندوق وجد فيه صندوقاً من العاج والأبنوس من داخله صندوق من الفضة فيه علبة من الذهب داخلها كتاب .

وأخرج الكتاب من العلبة الذهبية وقرأ العزيمة التى كانت مكتوبة فيه ، فسحر السموات والأرض ومواطن الليل والجبال والمياه وفهم ما تقوله الطيور فى الجو والأسماك فى الماء والحيوان فى المرتفعات . .

وتلا العزيمة الثانية فرأى الشمس فى السماء تسير فى موكب الآلهة والقمر يصعد الفلك والنجوم حوله فى أشكالها الحقيقية ، ورأى الأسماك فى قاع الماء لأن قوة علوية تسيطر على الماء الذى فوقها .

* * *

وعزم أخى على الماء فاستعاد هيئته الأولى ثم أبحر عائداً وقال للمجدفين:

— جدفوا بى إلى مكان آهورى . .

فجدفوا به ليل نهار زهاء ثلاثة أيام حتى وصل فوجدنى على شاطئ قنط ، كالموتى لم أتناول طعاماً ولا شراباً ولم أتحرك من مكانى ، وقلت له :

— وحياة الملك لتدعنى أرى ذاك الكتاب الذى تعبنا من أجله كل هذه المتاعب .

فوضع الكتاب فى يدى فما قرأت العزيمة الأولى حتى سحرت السموات والأرض ومواطن الليل والجبال والمياه ، وفهمت ما تقوله الطيور فى الهواء والأسماك فى الماء والحيوان فى المرتفعات ، وقرأت العزيمة الثانية فرأيت الشمس تسير فى موكب الآلهة والقمر يصعد الفلك ، والنجوم فى أشكالها الحقيقية ، ورأيت الأسماك فى قاع الماء لأن قوة علوية تسيطر على الماء الذى فوقها .

ونادى أخى على قطعة من البردى البكر وسطر عليها جميع ما كان مكتوباً فى ذلك الكتاب ، ثم غطس البردى فى خمر إلى أن ذاب فيه جميعاً ثم شربه ، وبذا أدرك جميع ما كان مكتوباً .

وعدنا فى نفس اليوم إلى « قفط » وأقمنا وليمة باهرة عند إيزيس وكبار الآلهة ثم رجعنا إلى السفينة وأبحرنا صوب الشمال .

ولكن « ثوث » علم بما حدث لكتابه فأسرع إلى رفع شكواه أمام إلٰه الشمس « رع » فقال :

— إن قانونى وشريعتى قد أخذهما نينوفرك — بتاح بن الملك منيب — بتاح ! ولقد اقتحم مسكنى ونهبه وأخذ صندوق وكتاب سحرى وعزائمى وقتل حارسى الذى كان يرعى الصندوق .

— إنه لك ، هو وجميع ما معه . . كله !

ولوح الإلٰه العظيم بيده وقال :

— لن يصل نينوفرك — بتاح إلى منفيس سالماً ، لا هو ولا أحد ممن معه !

وفى هذه اللحظة زحف ولدى « مابهيت » من تحت الصوان الملكى المنصوب فوق سطح السفينة الملكية وسقط فى الماء تنفيذاً لمشيئة « رع » .

وصاح جميع من كانوا على ظهر المركب فحضر أخى من حجرته وتلا عزيمة على الطفل فصعد إلى سطح الماء ، ثم تلا أخرى جعلت الطفل يقص كل ما حدث له ، وتهم ثوث التى قالها للإله رع .

* * *

وعدنا إلى قفط نحمل ولدنا المائت إلى دار التحنيط وأقمنا أناساً حوله يؤدون المراسيم الجنائزية ، وبعد أن حنطناه كأمير ملكى دفناه فى مقبرة قفط .

وقال أخى :

— لنذهب ، لنعد قبل أن يعلم الملك بما حدث فينشغل باله .

وعدنا إلى السفينة وأبحرنا إلى أن وصلنا إلى المكان الذى سقط فيه ولدى مابهيت ، فخرجت من تحت الصوان الملكى المنصوب فوق سطح السفينة وسقطت فى الماء تنفيذاً لمشيئة رع ! فصرخ جميع من كانوا على ظهر المركب فأقبل أخى وتلا على عزيمة فارتفعت فوق سطح الماء ، ثم نقلنى إلى السفينة وتلا عزيمة أخرى جعلتنى أنبئه بما حدث لى والتهم التى تقدم بها « ثوث » إلى الإله رع .

وعاد أخى إلى قفط وحملنى إلى دار التحنيط وأقام حولى أناساً يؤدون المراسيم الجنائزية ، وبعد أن حنطت كما يجب أن أحنط كامرأة ملكية دفنت فى المقبرة التى دفن فيها ولدى مابهيت من قبل .

وأبحر أخى ثانية فلما أدرك المكان الذى سقط فيه ولدى ولحقته فيه حدث نينوفرك — بتاح نفسه قائلا :

— أليس الأجدر أن أعود إلى قفط وأبقى معها ؟ فإننى إذا عدت إلى منفيس وسألنى فرعون عن أبنائه فماذا عساى أجيبه ؟ هل أقوى على

أن أقول له : « لقد أخذت أولادك معى إلى أرض طيبة حيث قتلتهم وبقيت حياً ، ثم عدت بعد ذاك إلى منفيس حياً.. ؟!»

وأمر بإحضار قطعة من قماش ملكى صنع منها لفافة سحرية ربط بها الكتاب ولفه حول صدره وثبته جيداً ثم خرج من تحت الصوان الملكى المنصوب على سطح السفينة وسقط فى الماء تنفيذاً لمشيئة « رع » وصاح النوتية يقولون :

ــ آه ، يا للمصاب الفادح ، يا للمصيبة الكبرى ، لقد ذهب الكتاب العظيم والرجل الحكيم الذى لا ضريب له !

وأبحرت سفينة فرعون دون أن يدرى أحد مكان نينوفرك ــ بتاح ، ووصلت إلى منفيس ، وأبلغ الأمر إلى فرعون فجاء إلى السفينة يلبس السواد ويتشح رجاله وجنوده وكهنة بتاح وجنود منفيس بملابس الحداد ، فرأوا نينوفرك ــ بتاح معلقاً بأهداب مجاديف السفينة الملكية بقوة سحره وسعة علمه ، فلما رفع من الماء رئى الكتاب فوق صدره .

وقال فرعون :

ــ ارفعوا هذا الكتاب عن صدره ، فعاد إلى الحياة وخرجنا من القبر ، فقال رجال حاشيته :

ــ أيها المولى العظيم .. لتظل حياتك حتى تبلغ عمر « رع » . . لقد كان نينوفرك ــ بتاح ساحراً بارعاً ، وكان عالماً عظيم الحكمة . والفضل فى ذلك يرجع لكتاب الإله « ثوث » الذى سطره بيده العلوية حين هبط إلى الأرض ! . .

سارق التحف

فى ذلك الحى الفاخر المحيط بقوس النصر فى باريس وهو الذى يعرف عادة عند الفرنسيين باسم « قسم النجمة » وقعت عدة حوادث سرقات لفتت إليها الأنظار إذ كانت جميعها موجهة ضد جماعة من الأغنياء هواة التحف الفنية التى يصل ثمن الواحدة منها إلى مئات الألوف من الفرنكات . .

وتبادر إلى الأذهان فى أول الأمر أن هناك لصوصاً كثيرين لأن طريقة السطو فى كل حادثة كانت تختلف عنها فى الأخرى . . ولكن اكتشفت بعد ذلك عوامل ظهر منها بوضوح أن السارق فى جميع هذه الحوادث واحد . . ولو أنه يحتمل أنه استخدم كثيرين لأن طرق السطو كما قدمنا يختلف بعضها عن بعض ، والمعروف لدى المشتغلين بتحقيق الجنايات أن لكل مجرم طريقة خاصة فى ارتكاب جريمته لا تحيص له عنها : فاللص الذى يسطو على المنازل فى منتصف الليل غير اللص الذى يسرق مخازن التجار فى رائعة النهار . . ولا يمكن أن يحذق فرد واحد أكثر من نوع واحد من اللصوصية وإلا وقع بسهولة فى يد العدالة .

ومن العوامل المثبتة أن السارق واحد : أن السرقات جميعها كانت تتناول فى كل مرة قطعة أو قطعتين — لا أكثر — من التحف فى القصر المسطو عليه فى حين تكون هناك تحف أخرى من ذهب أو فضة خفيفة الحمل غالية الثمن ومع ذلك لا تمتد إليها يد السارق ! !

كذلك ظهر أن اللص لم يترك فى أى حادثة أثراً — مثل بصمات الأصابع أو خلافها — يستدل منه البوليس عليه ! !

عهد إلى الضابط دورنى بالبحث عن مرتكب تلك السرقات . والضابط دورنى — من قسم مباحث باريس — معروف بين إخوانه بأنه ضابط خيالى يسير وراء إحساسه الشخصى دون لجوء إلى الطرق العلمية الثابتة التى يسير عليها بوليس سكوتلانديارد مثلا ، وإنما هو يرتب مطاردة المجرم بأسلوب خيالى تاركاً إياه يلف نفسه بالشبكة التى ينصبها له بحذق وبراعة يستر عيان الأنظار .

فلما عهدت إليه هذه المهمة جلس إلى مكتبه يستعرضها بصوت مسموع قائلا : « إذا فرضنا أن اللص سرق لينهب فلابد أنه باع مايسرق فإن المعروف عن اللصوص أنهم لا يستبقون لديهم أشياء مسروقة زمناً طويلا إذ لا صبر لهم على اجتناء ثمرة سرقاتهم وإذن فمن الجائز — لا سيما أن السارق واحد — أن يكون قد سرق هذه التحف إرضاء لشهوة شخصية .. وإذا تقرر هذا وجب فحص نوع التحف المسروقة لنرى ما إذا كان هناك توافق وتناسق بينها وبين بعضها البعض . . . »

وعندما استقر الرأى على بحث هذه النقطة أرسل فى طلب تاجر كبير من تجار العاديات والتحف وأطلعه على كشف التحف المسروقة قائلا : « أرجوك أن تخبرنى عن وجوه التوافق بين التحف المذكورة بهذا الكشف ، وإذا كانت تؤلف مع بعضها متحفاً ذا دلالة معينة كأن يشير إلى عصر من العصور أو حضارة خاصة أو أى شىء من هذا القبيل » .

فأكب التاجر على دراسة الكشف ولكنه لم يابث أن رفع رأسه مدهوشاً مادًّا ذراعيه كعادة الفرنسيين فى إظهار عاطفة خاصة ثم قال : « إن الرجل الذى لديه هذه المجموعة أستاذ أساتذة الفن غير مدافع ! ! وإنى إذ أتخيل غرفة تضمها لا يمكن أن تقع العين على أجمل منها ولا أروع ! ! ذوق

بديع سام !! وعين حساسة لا تخطئ التفريق بين تناسق الألوان إلى أبعد مدى !!! »

وعندما أفرغ التاجر جعبة دهشته كان دورنى أثناء ذلك مطرقاً مفكراً فرفع رأسه قائلا للتاجر: « إنى أطلب منك أن تقدم لى قطعة ، تحفة نادرة ثمينة تلائم هذه المجموعة » .

فذهب التاجر ثم عاد بعد أسبوع ودخل على دورنى حاملا « دورقاً » من البلور مكسوًّا بـ « جراب » من البلاتين والذهب الأبيض بديع الصنع جذاباً . حملق فيه دورنى غافلا عن رد التحية على التاجر الذى أنشأ بعدها يقول : « لقد جئتك بشئ تبحث عنه لا يبخل بتعريض حياته للخطر فى سبيل الحصول عليها . . ولكنه إذا أفلت بها فإن ثمنها جسيم !! »

أجابه دورنى : « لا تخف من هذه الناحية فإن جماعة الأغنياء الذين سرقت منهم التحف متضامنون فيما بينهم للقيام بجميع نفقات الخطة التى رسمتها » .

بعد أسبوعين صدرت الصحف الفرنسية حافلة بوصف قصر جديد أعد فى حى النجمة لإقامة زائر عظيم من أغنياء البرازيل يدعى المستر أراجيو الذى قدم إلى باريس لقضاء شهر العسل مع عروسه المسز أراجيو وقد أحضر الضيفان معهما من البرازيل مجموعة نادرة من التحف الثمينة . وإنهما يرحبان بأدباء باريس وهواة الفنون الجميلة فيها الذين يرغبون فى مشاهدة هذه المجموعة ، وقد فتحا أبواب قصرهما للزائرين خصيصاً لهذا الغرض .

وما لبث هذا الخبر أن ذاع حتى أصبح قصر أراجيو كعبة الوفود الباريسية ، وكان الزوار إذ يدخلون ساحة القصر يستقبلهم موظف فيه فيقودهم إلى مقصف فاخر يقدم لهم فيه الشراب الهنىء والطعام الشهى . ثم يخرجون منه إلى صالة التحف فيمتعون أنظارهم منها بكل طريف

نادر . ثم يذهب منهم إلى صالة التدخين من شاء ومن شاء ودع بأحسن مما استقبل به .

ولم تمض بضعة أيام على الجلبة التى أثارها وجود هذا القصر فجأة فى حى النجمة حتى جلجل باريس بنبأ آخر نشرته الجرائد فى صفحتها الأولى ، وإليك مضمونه :

« فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمع رئيس الخدم فى قصر أراجيو صوت حركة خفيفة فى صالة التحف فمشى إليها على أطراف قدميه (والحقيقة أن رئيس الخدم هذا لم يكن إلا دورنى وقد كان مختبئاً فى صندوق عبارة عن تحفة بديعة) فرأى اللص داخلا من النافذة فانتظر عليه حتى أصبح داخل الغرفة وقريباً من الدورق فأضاء النور وصوب المسدس إلى اللص . . وسرعان ما رفع هذا يديه مذعناً بالتسليم فقبض عليه البوليس وأراح الحى من شر سارق التحف » .

إلى هنا انتهت رواية الصحف الفرنسية فى ذلك اليوم .

وجلس دورنى يحقق مع اللص . . . فاعترف هذا قائلا : « اسمى توشون وقد كنت جالساً فى قهوة فحضر إلى رجل لا أعرفه وفاجأنى قائلا : " أنت توشون وأنا أعرفك ولكن لا تخف فإنى لست بوليساً سرياً وإنما أريدك أن تذهب إلى صالة التحف فى قصر أراجيو وتحضر لى الدورق البلورى الذى تجده بجوار النافذة وأنا أعرف بيتك وسأحضر إليك لآخذ منك الدورق وأعطيك عشرة آلاف فرنك " وما سبق لى أن سرقت شيئاً من التحف التى ضاعت من قصور هذا الحى » .

وبينما كان دورنى منهمكاً فى التحقيق مع من ظنه فى أول الأمر السارق المنشود إذا بالجندى الوحيد الموكل بحراسة قصر أراجيو تنزل على رأسه ضربة تلقيه صريعاً ويدخل شخص إلى صالة التحف من النافذة التى دخل منها توشون ويذهب بالدورق الثمين !

وبعد أيام تبخر قصر أراجيو فى الهواء وعاد الأثاث الذى كان قد فرش به إلى أصحابه ، وبقدر ما كانت الخطة التى رسمها دورنى لاقتناص سارق التحف رائعة كان فشلها أروع .

ولكن دورنى لم يفقد الأمل لأنه كان محتاطاً لهذا الفشل ، مدخراً تدبيراً آخر يلجأ إليه عقيب ذلك الفشل . وهذا هو الفرق بين رجال سكوتلانديارد وبين رجال بوليس باريس السرى ، إذ يهاجم الأولون بكل قواهم ، فى حين يتفنن الآخرون بأن يتركوا المجرم ينتصر فى بعض المواقع حتى ينهكوا قواه .

كان زوار قصر أراجيو — كما قدمنا — يذهبون إلى المقصف أولا ، وقد راعى دورنى فى هذا التدبير أن تقدم الصحاف والكؤوس إلى الزائر نظيفة مجلوة خالية من أى أثر من أصابع مقدميها وذلك بأن جعل خدم المقصف يلبسون قفازات من الجلد الأملس ، وكانوا إذ يتناولون الصحاف والكؤوس من الزائر يحتفظون بكل مجموعة منها فى مكان خاص يوضع عليه اسمه — أى اسم الزائر — حتى إذا أمسى المساء أخذ الخبراء صور بصمات الأصابع التى عليها وحفظوها تحت اسم صاحبها .

فلما فشلت الطريقة السالفة ذهب دورنى وطائفة من موظفى قلم البصمات ، يراجعون آلاف البصمات التى اجتمعت لديهم ممن زاروا القصر الوهمى على بصمات المجرمين المحفوظة فى سجلات قلم تحقيق الشخصية .

وبعد بحث طويل دقيق ظهر لدورنى أن بصمات أصابع شخص يدعى رينيه فوخس تاجر العاديات فى حى النجمة تطابق بصمات أوجين كوريو الذى سبق الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات فى حادث بيع تحف زائفة مزورة ! !

وفى اليوم الثانى كان دورنى مختفياً وراء نافذة المنزل المقابل لمنزل كوريو يراقب دخوله وخروجه .

واستمرت هذه الرقابة بضعة أيام إلى أن غادر كوريو منزله فى صبيحة أحد الأيام فعبر دورنى الشارع إليه وصعد إلى شقة كوريو ففتحها بمفاتيح مصطنعة ودخل يجوب أرجاءها ويفتش دواليبها فما عثر على شىء يدل على أن لكوريو يداً فى تلك الجرائم ولا فى غيرها !

ولكنه وهو يفتش أحد الأدراج عثر على قفاز من الحرير الأملس وقد أوشك على البلى من كثرة الاستعمال ! فخطرت له فكرة فى مثل البرق وما لبث أن أخرج من جيبه مبرداً دقيقاً وجعل يبرد خنصر قفاز اليد اليسرى حتى يراه بصورة غير ظاهرة . . ثم ذهب إلى الغرفة التى ينام فيها كوريو ، وبجانب السرير فيها دورق ماء (عادى) .! وفوقه كوبة من الزجاج وقد اعتاد كوريو أن يشرب كوبة ماء قبل النوم وعندما يستيقظ ، فتناول دورنى الدورق والكوبة بين يديه ونظفهما تماماً وأعادهما إلى موضعهما ثم خرج من الشقة وأغلق قفلها مثلما كان .

وفى اليوم التالى انتظر دورنى حتى خرج كوريو ودخل إلى الشقة وكان معه دورق وكوبة مشابهين للدورق والكوبة اللتين فى غرفة النوم فوضع هاتين محل هاتين وغادر الشقة توًّا إلى معمل تحقيق الشخصية فتأكد من أن رينيه تاجر التحف وكوريو هما اسمان لشخص واحد . ثم ذهب ينتظر .

وبعد بضعة أسابيع وقعت حادثة سرقة أخرى فى بيت أحد الأغنياء هواة التحف فى حى النجمة ودلت جميع ظروفها على أن مقترفها هو سارق التحف بعينه !

فذهب دورنى مستصحباً أقدر كيماوى فى قلم البصمات وقال : « إن أمامك أصعب شغلة تقوم بها فى حياتك فإن البصمة التى نريد التقاطها

هى بصمة أصبع واحد هو خنصر اليد اليسرى وستجدها مطبوعة من وراء قفاز . فإن لم تحترس وتشتغل بشعرة واحدة من الفرشة ضاعت جهودنا وأفلت المجرم ! »

وراحا يستعينان بالميكروسكوب فى البحث عن آثار ذلك الخنصر على مختلف التحف التى أعرض عنها السارق الفنان وينثران الدقيق الرمادى على البقع الملونة والأسود على اللطخ البيضاء حتى إذا بدت لهما شبه بصمة التقطها المصور حتى اجتمعت لديهما عدة بصمات لخنصر يسرى . فتنفس دورنى الصعداء إذ صدق حدسه .

وفى اللحظة التى قرأ فيها دورنى توقيع كوريو صريحاً قفز إلى سيارة (تاكسى) منطلقاً إلى زميله المقتفى أثر كوريو الذى كان إذ ذاك فى منزل أحد أعضاء مجلس النواب ، وإذ رأى رجل البوليس دورنى قال له : « إنه لا يزال هنا » فسأله دورنى : « أمتأكد أنت من ذلك ؟ » فأجابه الآخر : « نعم ، فإنه لم يخرج أحد من المجتمعين بعد وقد خرجت فقط سيدة أصيبت بإغماء حتى اضطروا إلى مساعدتها فى الوصول إلى سيارتها » .

فهمهم دورنى ثم قال : «اصعد إلى فوق واطلب مقابلة المسيو رينيه فوخس وعندما يحضر لمقابلتك ألق القبض عليه وسأنتظرك هنا » .

فصعد الشرطى مزهوّاً — وقد كان حديثاً فى الخدمة — بأن يعهد إليه بالقبض على كوريو وقرع الجرس وطلب من الخادمة أن تدعو المسيو فوخس لمقابلته دون أن تزعج أحداً من المجتمعين . فذهبت ثم عادت تقول له : « لقد خرج المسيو فوخس ولكنه ترك ورقة قائلا إن شخصاً سيحضر للسؤال عنه وحينئذ تسلم له هذه الورقة » فضرب رجل البوليس على الأرض بإحدى رجليه قائلا محتداً : « خرج ؟ هذا مستحيل ! فقد كنت واقفاً أراقب الباب ! »

ثم فتح الورقة وقرأ :

« دورنى

« أنت رجل ذكى ولكنك حقاً لا تقدرنى . أفلا تظن أنى بحثت حتى عرفت من عهد إليه بالكشف عن هذه الحوادث ؟ ومنذ أن علمت أنك أنت الشخص الذى يتعقبنى لم يكن من الصعب علىّ أن أفهم فخ قصر أراجيو .

« مسكين توشون ! لقد وجدت نفسى مضطرًّا أن أطعم الفخ فعثرت على هذا الغرّ الأحمق سيئ الحظ إذ كنت أعلم أنكم ستأخذونه إلى مركز البوليس فيخلو لى الجو ، ولكنك تجرح كبريائى بوضعك مثل هذا الأبله لمراقبتى وأظنه لا يزال ينتظرنى !

« وختاماً أهنئك على ما كدت تحرزه من نجاح

ك . . »

ونزل الشرطى بالورقة فدفعها إلى دورنى ووقف يراقبه أثناء قراءته لها منتظراً بصبر نافد وهلع شديد قيام العاصفة عليه من رئيسه . ولكن دورنى أتم قراءتها ثم قال بهدوء : « وقد يهمنا أن نعرف الطريقة التى هرب بواسطتها ، فهيا بنا نصعد لنرى » .

واستقبلتهما ربة الدار فى اضطراب بالغ قائلة : « لا أكاد أفهم شيئاً مما يجرى حولى وكل ما أعلمه هو أن المدموازيل سوريل التى حضرت مع المسيو فوخس ليشربا الشاى عندنا شعرت بدوار فأدخلتها إلى غرفتى لتستريح وبعد نصف ساعة اشتد بها المرض فبحثت عن المسيو فوخس ولكنى لم أجده وحينئذ أوصلها زوجى إلى سيارتها » .

فسألها دورنى : « هل تسمحين لنا بإلقاء نظرة فى غرف المنزل ؟ »

فامتقع وجه السيدة قليلا ولكنها تقدمته إلى غرفتها فما كادت تفتح بابها حتى بدت فتاة بارعة الجمال هى المدموازيل سوريل مستلقية فى

السرير لابسة ثوب « بنوار » ربة الدار وفى إحدى يديها رواية تقرؤها وبين أصابع الأخرى سيجارة تدخنها .

ولم يلق دورنى نصباً كبيراً فى أن يعرف أن المدموازيل سوريل إن هى إلا خليلة كوريو وقد ادعت المرض وخلعت ملابسها فارتداها حبيبها وفر بها وبقيت هى منتظرة فى هدوء رجاء أن تقرضها ربة الدار ثوباً تعود به إلى منزلها .

وسخر الجمهور الباريسى من دورنى الذى تظاهر بالغيظ والحنق فى أحاديثه مع الصحفيين ولكنه كان يخفى وراء غضبه واضطرابه نفساً هادئة مطمئنة إذ أنه لم يكن غبياً كما تصوره كوريو . وإنما كان الشرطى الأبله الذى اختاره هو بنفسه حتى إذا أفلت منه كوريو اعتقد أنه أفلت من جميع مراقبيه ومتعقبيه !! وكان زميلا من زملاء دورنى لا يقل عنه مهارة ولا دهاء كان هو الظل الحقيقى الملازم لكوريو وهو لم يفارقه لحظة واحدة . وقد استمر دورنى يتلقى من زميله هذا أخبار كوريو فى مخبئه حتى لم يكن يتعذر عليه أن يقبض عليه فى أى وقت شاء . . ولكن دورنى كان يريد أن يعلم المكان الذى أودعه كوريو التحف المسروقة إذ أنه لو قبض عليه قبل الاستدلال على هذا المكان فإنه لن يرشد عنه وحينئذ تبقى التحف فى مخبئها .

لهذا أفسح دورنى الطريق أمام كوريو ليهرب عساه يلجأ إلى المكان الذى أخفى فيه التحف ، ولبث منتظراً حتى يوافيه مساعدوه الذين فى أثر كوريو بخبر ذلك المكان .

وكان من بين هؤلاء المساعدين ممثلة ألمانية — لم توفق على خشبة المسرح — فى خدمة دورنى ، وكان عليها أن تراقب المدموازيل سوريل وقد لعبت دوراً خطيراً معها .

ذلك أنها ذهبت يوماً إلى منزلها فطلبت مقابلتها ، و بالرغم من الحذر الشديد الذى استقبلتها به المدموازيل سوريل فقد صارحتها الشرطية الداهية قائلة : « لقد حضرت إليك يا مدموازيل سوريل لأبوح لك بالخطة التى يدبرها دورنى ضد حبيبك والدافع لى على ذلك هو الانتقام منه لأنه عبث بعواطفى زمناً حتى إذا عرف غيرى هجرنى ولم يعد يهتم بى ، ولعله يظن أن مهنته تخيف الناس فيمتنعون عن الانتقام منه ولكنه واهم ، وهو الآن ناصب شركه للقبض على حبيبك الذى يراقبه أحد رجاله الآن فى هيبر ».

فاكفهر وجه المدموازيل سوريل إذ كان كوريو مختفياً حقيقة فى هيبر دون أن يخطر فى باله أو فى بالها أن هذا الخبر معروف للبوليس .

واستأنفت الشرطية الممثلة حديثها قائلة : « ولما كنت أعرف أن دورنى سوف ينال شهرة عظيمة بقبضه على كوريو فإنى أريد أن أحول دون حصوله على هذه الشهرة ، كلا ، لا أريده أن ينال أى شهرة أو يرقى ، لأنه سوف يفاخر بذلك ، فلا تتوانى فى إرسال برقية إلى حبيبك ليهرب ، ولا بأس بأن أخبرك أيضاً أن رجلا آخر أحسن من دورنى يحبنى وهو الذى يراقب حبيبك فى هيبر ولكن فخر القبض على كوريو سيعود كله على دورنى ، ولا ينالنا منه شىء . . وزيادة فى الإيضاح أخبرك أن حبيبى المراقب لحبيبك متنكر فى زى تاجر عاديات سويسرى وقد أصبح فى زيه صديقاً لكوريو » .

فنهضت المدموازيل سوريل واقفة وقالت : « إنى لا أفقه حرفاً مما تقولين ، وإنما لدى موعد الآن فإلى اللقاء!! »

فغادرت الشرطية الغرفة وعلى وجهها اسمى مظاهر الاستياء — التقليدى مش الأصلى ! — من غباء المدموازيل سوريل !

وبقليل من التفكير استطاعت المدموازيل سوريل أن تدرك أن أقوم خطة هى أن تسافر بنفسها إلى حبيبها لتحذره . فحملت حقيبتها واستقلت

أول قطار إلى الجنوب وعندما بلغت هيبر انطلقت إلى مخبأ حبيبها فابتدرته قائلة « بيبرا » ثم طفقت تقص عليه الحكاية التى سمعتها من حبيبة دورنى السابقة (والمزيفة !) فلما انتهت من قصتها رفع كوريو رأسه بتؤدة قائلا : « إذن جوجون شرطى هو الآخر ، أليس كذلك ؟ ولكن لا بأس فإنه سيتعشى معنا الليلة !! »

وفى المساء تعشى جوجون مع كوريو وخليلته والظاهر أنه أفرط فى الطعام والشراب لأنه لم يلبث أن نام على المائدة وقضى الطبيب بضع ساعات يعالجه حتى أفاق من المخدر الذى دس له فى الشراب ولكن كوريو وخليلته لم يضيعا الوقت سدى فحزما أمتعتهما ونزلا فاستقلا سيارة إلى منتون الواقعة على الحدود الفرنسية الإيطالية ، وهناك فى ظلام الليل ركبا زورقاً فنقلهما إلى الريفيرا الإيطالية .

ولم يداخل كوريو وخليلته أى شك فى أنهما أصبحا بمأمن من الرقباء ، إذ كانا يعرفان البحار صاحب الزورق الذى نقلهما كما كانا واثقين من أن أحداً لم يتبعهما .

وهكذا دبر دورنى هذه الحيلة الثانية ليمهد السبيل أمام كوريو ليفر إلى مخبأ التحف بعد أن وثق أنه ليس فى هيبر .

وفى ليلة ليلاء بعد بضعة أيام من هرب كوريو وخليلته إلى الريفيرا الإيطالية سار دورنى على رأس قوة مؤلفة من أربعة من الشرطة الفرنسية الأشداء وثلاثة من الإيطاليين حاملى القرابينات حتى وصل إلى منزل (فيلا) جميل قائم على رابية فطرق بابه وترقب قليلا فرأى بصيصاً من نور يطفأ فجأة فى إحدى النوافذ ولكن لم يتقدم أحد لفتح الباب !!

فألقى دورنى حجراً من النافذة التى كان فيها النور وصاح قائلا : « افتح لنا يا كوريو وإلا كسرنا الباب » .

وأعقب ذلك صمت برهة ثم دوى صوت أجش من الداخل قائلا : « إذا دخلتم فإنى سأطلق رصاصة على الصندوق الصغير الذى هنا فأحطم ما فيه » .

فأجابه دورنى : « إنى لا أصدقك يا كوريو فإنك إذا لم تكن قد أحببت هذه الأشياء فلاريب أنك كنت تبيعها ، وما دمت قد أحببتها فلا يمكنك أن تحطمها وثق أنك مهما قاومت فإننا لابد ملقون القبض عليك » .

وأشار إلى رجاله فأشعلوا النار فى الباب حتى انفتح له طريق اندفعوا منه شاهرين مسدساتهم فانهال عليهم رصاص مسدسى الخليليين وجاوبوهما بالمثل فكانت معركة حامية ، ثم دوت صرخة سكت على أثرها أحد المسدسين وصاح كوريو بصوت متحشرج ممزوج بالألم : « سلمنا !! لقد أصبت !! كفى عن إطلاق النار يا سوزان » . ولكنها أجابته بصوت المغيظ : « كلا ! » واستمرت فى إطلاق النار والشرطة تجاوبونها متقدمين خطوات شجعهم عليها صوت كوريو يتوسل لخليلته ناصحاً لها بالتسليم مادام قد جرح ، ثم نادى بصوت عال : « أرجوك يا دورنى ألا تمسها بأذى فاسأحملها على أن تكف عن إطلاق النار » . ولكنها أجابته مصرة : « فلنمت معاً وتذهب هذه الأشياء معنا » فأجابها كوريو هالعاً : « لا يا سوزان ، لا تدمرى هذه الأشياء الجميلة التى أحضرتها من أجلك إنى لا أسمح لك بتدميرها !! »

وجعل دورنى يتقدم متلصصاً شاهراً مسدسه خشية أن يكون ذلك الحديث خدعة ، ولكن صوت المدموازيل سوريل رن فى المكان قائلة : « أضيئوا النور بحق الآلهة ! إنى أسلم نفسى ! أنقذوا بيير إنه يحتضر !! »

فرمى دورنى علبة ثقاب فتناولتها وأشعلت عوداً فشاهدها الشرطة جاثية

على ركبتيها بجوار حبيبها تحاول وقف نزيف الدماء من جرح فى صدره فتقدم دورنى ووراءه الشرطة ونقل كوريو إلى إحدى الغرف ثم نقل إلى باريس حيث أعتُنى بجرحه فلم يمت ، وقدم للقضاء فصدر عليه حكم مخفف وأعيدت التحف إلى أصحابها ، وخلد دورنى اسمه فى سجل الدهاة من رجال الشرطة .

المسافران

كان الرجلان مسافرين معاً فى عربة سكة حديد واحدة لم يكن فيها سواهما ولبثا زهاء ساعتين دون أن يقول أحدهما للآخر كلمة ، وأكبرهما سنا يقرأ جريدة ، على حين كان الأصغر ويدعى هانشو سابحاً فى بحار من الخيال ويدخن غليونه بحركة ميكانيكية ، إذ كان ذلك الغليون خالياً من الطباق .

وألقى الشيخ جريدته جانباً وجعل ينفض رماد غليونه ، وفى هذه اللحظة رأى حال زميله فى السفر وكيف أنه يدخن دون طباق ، فالتفت إليه وقال :

— أليس معك طباق . . خذ بعضاً مما معى . .

ونظر إليه هانشو نظرة شكر وعرفان جميل ومد يده إلى كيس الطباق مملأ منه غليونه وهو يقول :

— لقد ركبت القطار دون أن أحمل شيئاً معى من الطباق .

وتفرس المسافر فى هانشو فرآه يلبس ثوباً قديماً فأيقن أنه رقيق الحال ، وأن الهم يبديه أكبر سناً من الحقيقة فسأله :

— هل أنت مسافر من أجل عمل ؟

— نعم إننى مسافر للبحث عن عمل وهو بحث طال بى كثيراً .

— وهل أنت ذاهب إلى عمل معين ؟

— أجل فإننى على موعد فى جريدة نورثرن نيوز إذ رشحت نفسى

لمنصب محرر القسم الروائى فيها . هل تعرف شيئاً عن هذه الجريدة .. ؟

— إنها مصادفة عجيبة أن نسافر فى عربة واحدة إذ أننى أعلم أن شخصين فقط هما اللذان رشحا لهذا العمل .

— وبعد ؟

— وأنا هو الشخص الثانى ؟

ومر هانشو بيده فوق جبينه كأنه تعب يساوره القلق ، فقال له الشيخ :

— وهل أنت معلق أملا كبيراً على ذلك العمل ، هل أنت بلا عمل الآن ؟

— نعم . وهأنذا أرى منافساً فى العمل الذى كنت أرقبه من حين بعيد !

— إننى لست مضطراً جداً للعمل ، وإذا علمت . .

— أتعنى أنك إذا علمت مبلغ اضطرارى إليه تتخلى لى عنه ؟

— ربما ولكننى أريد أن أعرف ظروفك أولا . .

وحملق هانشو فى وجه مخاطبه قليلا ثم مال فى مقعده إلى الخلف ونظر إلى السقف برهة كأنه يستجمع أفكاره وقال :

— حسناً . إليك قصتى التى تبدأ منذ أيام الحرب الأخيرة . فقد كان دوران صديقى وزميلى فى القتال وكنت أحبه ويودنى وزاد تعلقى وإخلاصى له منذ أن أنقذ حياتى من موت أكيد فى صفوف القتال معرضاً حياته للخطر الذريع .

وقبل نهاية الحرب أصبت بجرح خطير ولما شفيت منه كانت الحرب وضعت أوزارها ولكننى بقيت أعرج قليلا فالتحقت بعمل يلائمنى واستعنت بالأجر الضئيل الذى أتقاضاه منه على العيش بعد أن أضفت إليه المعاش الذى كانت تصرفه لى الحكومة .

وكنت قانعاً بهذا العيش راضياً به إلى أن التقيت بإلزى وتدلهت فى هواها ورغبت فى الزواج منها ، ولا يخفى عليك أن الزواج يستلزم نفقات ونقوداً ، وإذ رأيت الارتباكات التى وقع فيها بعض زملائى بعد أن تزوجوا آثرت أن نؤجل زواجنا إلى أن يتبدل عسرنا يسراً .

وبعد حين قصير قابلت دوران مصادفة فأسرعت أذهب إلى حبيبة القلب أعرفها بالبطل الذى أنقذ حياة خطيبها المحبوب .

وأعجب دوران بإلزى وأخبرنى أنه مسافر إلى جزائر الهند الغربية حيث يهتم فيها بمزارع واسعة ، وعرض على أن أساعده فى العمل فرحبت بالفكرة لأننى كنت لا أزال ضعيف الرئتين من آثار غازات الحرب ، وقد سبق أن أشار على الطبيب بالعمل فى الهواء الطلق .

وأعجبت إلزى بدورها بهذا الاقتراح فعقدنا زواجنا وسافرنا إلى جزر الهند الغربية .

وكانت مزارع دوران بديعة حقا ، وكانت تدر محصولا وافراً ، وكان موقعها موقعاً جميلا تحيط بها التلال من جهات ثلاث ، وكان الهواء عليلا منعشاً سرعان ما بعث فى النشاط والحياة المرحة ، أما إلزى فكانت لا تقل عنى بهجة بذلك الوطن الجديد .

وصمت هانشو قليلا ونظر إلى الأرض مليا ثم واصل حديثه فقال :

وكانت التلال المحيطة بالمزارع عبارة عن براكين كانت ثائرة ثم خمدت منذ خمسين عاماً ، وكان الكوخ الذى نقيم فيه لا يبعد إلا قليلا عن « بدرو العجوز » ، وهو اسم أكبر بركان فى الجزيرة وهو البركان الوحيد الذى كان ينفث بعض الدخان من حين إلى آخر .

ولكن بدرو العجوز كان خامداً لا يثور وقد مضى عليه نصف قرن وهو هادئ لا يبعث لهباً ولا حمماً .

وكانت المزارع مثمرة والعمل الزراعى فى الجزيرة كثير الجدوى والإنتاج ، ومع ذلك فقد اشتريت من دوران النصيب الذى تولّيت أمره فيها ، وبثمن بخس جداً ولست أنسى ما قاله لى عند ما فاتحته فى ذلك :

— أنت صديقى يا ند وأنت جدير بكل خير خصوصاً وأنت متزوج .

ولم أعبأ فى أول الأمر بتعليقه على حالتى ولكنى تذكرت فيما بعد معنى قوله إننى متزوج .

وصمت هانشو وسكت عن الحديث ، ولاحظ زميله فى السفر أنه أغمض عينيه كأنه يبعد من أمامه منظراً سيئ الذكر ثم عاود سرد قصته قائلا :

لقد لبثا ثلاث سنين يستغفلانى وأنا لا أدرى ! وأحسب نفسى سعيداً سعيداً ! لقد كنت ألبث أوقاتاً طويلة خارج البيت أحاول إجادة فن الزراعة ولم أكن أدرى كيف كانت إلزى تقضى تلك الأوقات فى غيبتى . وكنت أهنأ إذا رأيتها مرحة راضية طروباً . . .

ولعلك تحذر ماذا كان يفعل هذان الاثنان معاً وأنا بعيد عن البيت أياماً .

لقد عرفت أول بادرة من الأمر حينما عدت ذات يوم مبكراً على خلاف عادتى فلما أن ذهبت إلى كوخنا أخبرنى الخادم بأن إلزى قد ذهبت إلى الكوخ الكبير فلم أعجب لذلك لأننا كنا نقضى مع دوران شطراً كبيراً من الوقت ويقضى هو فى كوخنا شطراً آخر ولذا رأيت أن أذهب وألحق بهما .

وإذا قاربت الشرفة التى كانا جالسين فيها سمعت صوت إلزى تتحدث فصعقت فى مكانى إذ بلغ إلى أذنى هذا الكلام :

— لا تقل شيئاً لند إننى خائفة !

وضحك دوران ورد عليها بقوله :

— ليس ثمة ما تخافين منه ، لماذا لا تقولين له فينتهى الأمر ؟
— ولكننى أريد أن أستوثق .
— ألم تستوثقى بعد . . . ؟
وخفت صوت دوران بعدئذ فخيل إلى أنه قد مال عليها وهو يقول :
— لديك متسع من الوقت . .
— إنى أعرف ذلك ولكننى أرجوك أيها العزيز أن تبعث الطمأنينة إلى نفسى . . .
ولبثت جامداً فى مكانى وكأن كلماتها مطارق تهوى على رأسى ، وسمعتهما يتآمران ويقرران الذهاب إلى المدينة معاً بعد أن ينتحلا عذراً مختلفاً أمامى .
ومضيت مشرد الذهن كأن صاعقة قد انقضت على ، وهالنى أن أرى خيانة زوجتى وأعز صديق لى .
وبدأت منذ تلك اللحظة أمقت دوران وأكره زوجتى ، وقد ذهبت بعد ذلك الحديث إلى كوخى وأخرجت مسدسى ورغبت فى أن أضع حداً لهذه الخيانة على الفور ، ولكننى ما لبثت أن استعدت هدوئى وعولت على أن أتظاهر بأننى لم أعرف شيئاً من تدبيرهما وأن أصبر إلى أن يعودا من المدينة ثم أتدبر أمرهما .
ولم يذهبا إلى المدينة فى مدى أسبوع لأن سيارة دوران كانت معطلة وكان هذا الأسبوع فرصة جعلت أرسم فيها خطة القتل والانتقام دون أظهر أمامهما بأى مظهر يدلهما على نياتى .
وقد تملكت نفسى حينما حضرا إلى ، تقول لى إلزى إنها مدعوة إلى حفلة فى المدينة وإنها ستغيب ليلة أو ليلتين ، ويقول دوران إنه ذاهب إليها بدوره من أجل عمل ، ويقترح أن يصحب إلزى فى ذهابها ويبيت فى النادى إلى أن تنتهى من حفلتها فيصحبها عائداً . .

وأنصت إليهما باسماً وسمحت لهما بالذهاب . . .

ولعل الطبيعة نفسها كانت تشترك معى فى أحزان ذلك اليوم إذا اكفهر الجو وتلبد بالغيوم فدعوت الخادم الوطنى وسألته : -

— هل فى الجو زوابع قادمة ؟

فأجابنى بقوله :

— لا . إنما هو بدرو العجوز ينفخ الشيطان من فوهته دخاناً يومين أو ثلاثة . ومن يدرى ربما يثور !

وهززت رأسى وقلت له :

— ليس ذلك معقولا فإن البراكين لا تثور بعد أن تخمد خمسين عاماً.

وراد اكفهرار الجو فى اليوم التالى إلى حد اختفت معه قمة بدرو عن الأنظار ولكننى لم أعبأ بشىء من ذلك إذ كنت أفكر فى دوران وإلزى .

ولبثت طوال المدة التى غاباها أتلظى بنيران حقد وغيرة قاتلة ، ولم يكن الويسكى الذى أشربه ليل نهار ليطفئ من حدة غضبى وسخطى وكان المسدس على مقربة منى دائماً . .

وقبيل مساء اليوم الثانى من سفرهما كنت أجوس خلال المزرعة لأننى لم أشأ أن أكون فى البيت عند عودتهما ، وإذا بى أسمع صوت السيارة قادمة بهما ، وقد أوقفها دوران قرب المزرعة وناداني ولكننى لم أجب فنزلت إلزى أما دوران فاتجه شطر كوخه يحسبنى فيه .

وخرجت من بين المزروعات وذهبت على الفور إلى كوخ دوران والمسدس فى يدى .

وسكت هانشو عن الحديث وهو شارد البصر كأنه يستحث ذاكرته ، ومال المسافر نحوه وفتح فمه بالكلام لأول مرة منذ بدأ هانشو قصته :

— هل تريد أن تقول لى إنك قاتل . . .

— لقد كنت أريد ذلك !

وعاد هانشو إلى حديثه فقال :

وكان دوران يشرب إذ دخلت عليه الكوخ فحياني بتحية الأخوة العادية ولكنني لم أجبه بكلمة ومددت يدى إليه بالمسدس ، فلما أن رآه قال لى :

ــ لم هذا يا ند ؟!

ــ سوف أقتلك ثم أقتل إلزى .

ــ ولماذا . . ؟!

ــ لاتطلب أى إيضاح فقد لبثتما طول الثلاثة الأعوام الماضية وأنتما تستغفلانني وها قد جاء دور انتقامى .

ــ لا تكن غبيا يا ند فأنت مريض ، وقد حدث أن إلزى أحست ــ ألم تحذر أحست بماذا ــ بتحرك الجنين فى أحشائها . .

ــ جنين ؟!..

وضحكت لهذه الكلمة كثيراً إلى درجة أننى استندت إلى الباب كيلا أقع من كثرة الضحك :

ــ لن تعيش حتى ترى طفلك أيها الـ . .

وحاول أن يبدى حركة فسددت إليه المسدس وقلت له :

ــ سوف تموت هنا والآن . .

ورفعت مسدسى أصوبه نحو صدره ولكن حدث فى اللحظة التى كدت أحرك فيها الزناد صوت انفجار عظيم هز أركان الكوخ بنا وتوهج ضوء أحمر فى الغرفة التى كنا فيها .

ونظر دوران من النافذة وقال :

ــ يا إلهى . . انظر !

ونظرت صوب إشارته فرأيت نهراً من الحمم المنصهرة ينحدر من أعلى الجبل فقد ثار بدرو العجوز بعد طول الخمود !

وصاح بى يقول :

— أسرع فإن إلزى فى كوخها . .

وجرى صوب الباب ولكننى سبقته إليه وسددت المسدس إلى صدره ومنعته من الخروج فقال لى :

— أتعنى أنك تريد أن تتركها تموت .

— إننى أعنى أنك إذا تحركت من مكانك شبراً قتلتك على الفور .

وثارت ثائرة دوران وجعل يتهددنى مرة ويتوسل إلى أخرى ، ويذكرنى أيام صداقتنا فى أيام الحرب ، ولكننى لم أستمع له وبقيت أهدده بالموت إذا تحرك إلى أن مضى الوقت الذى ظننته كافياً وعندئذ رفست الباب فانفتح وقلت لدوران :

— يمكنك أن تذهب الآن لإنقاذها .

وسكت هانشو ، فجعل صاحبه يتململ فى مقعده ويسعل ويحدث حركة بغليونه ثم قال :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— هذا ما يعلمه الله فالذى أذكره أننى جعلت أعدو وأعدو على قدر ما تمكننى قدماى ثم وقعت على الأرض ، ومنذ تلك السقطة لا أعرف شيئاً .

— إذن فقد تركتهما بين النيران ؟

وأجابه هانشو بهزة من رأسه ولكنها لم تقنع الرجل فسأله :

— إذن كيف . . . ؟ إننى لا أستطيع الفهم . .

— لقد فقدت ذاكرتى ولست أدرى كيف عدت إلى إنجلترا . . وحدث بعد عودتى بزمن لا أعرف مقداره أن قابلت إلزى . . .

وقاطعه الرجل بقوله :

— ولكنك كنت تقول إنك . . .

فأجابه هانشو :

— أجل فقدت ذاكرتى ولم أعرفها إنما هى التى عرفتنى ، وأخذتنى إلى مسكنها الحقير وجعلت تعيد إلى ذاكرتى المفقودة رويداً رويداً .

وقد علمت أن دوران قد أنقذها فى تلك الليلة وقد كان الأمل فى نجاتها ضئيلا جداً ، ولكن دوران بطل نبيل كما أسلفت لك فضحى بحياته فى سبيل إنقاذها. ومات شهيد مروءته ونبله إذ دهمته سيول المواد المنصهرة الملتهبة فراح ضحية وفائه وإخلاصه وطهارة قلبه .

ويظهر أن إلزى قد روعت بحادث انفجار البركان وثورانه ففقدت ذاكراتها هى الأخرى فهى لا تدرى كيف عادت إلى إنجلترا ، وقد وضعت طفلها وأخذته إحدى الجمعيات الخيرية لتعنى به وتفرغت هى لكسب قوتها من الحياكة فى أحد المصانع وبقى أن نجد ما نعول به طفلنا . . »

ونظر الرجل إلى هانشو قائلا :

— هل قلت طفلنا . . ؟!

— أجل . لقد كنت مخطئاً فى كل أوهامى وظنونى فلم تكن ثمة ريبة بين دوران وإلزى وقد كانا صديقين وفيين ، فقد رغبت إلزى أن يصحبها دوران إلى أحد الأطباء لأنها كانت تحس بتحرك الجنين فى أحشائها ، أما سبب عدم إخبارى بذلك وأنا زوجها فهذا ما يعلمه الله ، وإن كانت قد قالت لى إنها أرادت أن تتأكد قبل أن تحمل إلى هذا النبأ العظيم ورأتنى مشغولا فى العمل فلم تشأ أن تبعدنى عنه لسبب قد يتضح أنه لا يرتكز على أساس . وهذا هو السبب فى وجوب حصولى على هذا العمل بأية حال من الأحوال ، إننى أنشد العمل من أجل إلزى ومن أجل الطفل . .

ووقف القطار فنزل الرجل واختفى فى الظلام ونزل فى أثره هانشو .

وفى صباح اليوم التالى كان هانشو خارجاً من باب مكتب الجريدة فى اللحظة التى كان زميله فى سفره بالأمس داخلا فنظر إليه هانشو وقال :

— لقد عينونى فى العمل . .

ولمعت عينا الرجل وقال :

— هذا جميل وسوف تسر إلزى بذلك . .

وبدت على هانشو أمارات القلق ثم علت فمه ابتسامة وقال لمحدثه :

— لم قلت لى إنك أيضاً كنت ذاهباً من أجل هذا العمل . . ؟!

— إنها كانت مجرد تجربة فقد رغبت أن أرى مبلغ قدرتك على التقدير والوصف .

— أما أنا فقد عرفتك يا مستر جراندسون من أول وهلة وأدركت أنك مدير الجريدة ولذا قررت أن أقنعك وأحملك على استخدامى ، وإذ عينتنى فى الوظيفة فهذا دليل على نجاحى ، أما إلزى فلا وجود لها بالمرة ، إنما سوف تظهر فى روايتى القادمة .

ونظر إليه جراندسون دهشاً مذهولا .

أما ند هانشو المؤلف القصصى الذى عين فى ذلك اليوم رئيس تحرير القسم الروائى فى جريدة نورثرن نيوز، فقد حياه مبتسما ومضى فى سبيله . . ! !

قلب الوقور

وقعت حوادث هذه القصة فى زمن غابر وعهد غير قريب من عهود الولايات المتحدة ، وقد كنت حينذاك فى بلدة مارشال من أعمال ولاية تكساس ، وبدأت أولى حوادث الرواية ساعة أن دخل رجل غريب يلبس السواد ويحمل كتاباً مجلداً إلى ردهة الفندق الذى كنت ألعب فيها البوكر مع صديقى وزميلى ريد براون وبيل ماكاى .

وكان الرجل يلبس قبعة سوداء عالية ، وبعد أن نظر إلينا ملياً تقدم إلى مائدتنا يقول بأدب :

— هل تأذنون لى أيها السادة أن أقدم نفسى لكم ؟ إننى أدعى أبنزار جونز من حملة الإنجيل ودعاته وقد هبطت مارشال كى أساعد بعض مواطنيكم على سلوك سبل الحق والرشاد . وإنه ليسرنى أن أدعوكم جميعاً إلى سماعى بمجرد أن أجد مكاناً لائقاً ألقى فيه عظاتى . هل تتفضلون بإرشادى عن مكان أستطيع اتخاذه كنيسة مؤقتة ؟

وشفع سؤاله بنظرة ألقاها على بيل الذى كان رائق المزاج فى تلك اللحظة . لأنه كسب منى قبلها بقليل ما يوازى مرتبى شهراً كاملا وربح من ريد مبلغاً يساويه ، وأجابه بيل بقوله :

— لى كوخ خال فى الطرف الثانى من المدينة ، ولريد آخر على سفح التل القريب من هنا وكلاهما تحت تصرف مبعوث السماء . أليس كذلك يا ريد ؟

وهز ريد رأسه علامة الإيجاب وقال الراهب :

— إننى شاكر جداً . وسوف أتخذ من كوخ المدينة كنيسة للوعظ ، ومن كوخ التل مأوى أبيت فيه . . هل هناك آثام كثيرة تقترف فى مارشال ؟

فأجبته :

— إن فيها من الآثام ما لا يرفعها إلى مصاف القداسة . .

— إذن فسوف تحضرون لسماع عظاتى ؟

فأجبناه بأننا سوف نفعل فقد أعجبنا بمظهره ، وعزمنا على مساعدته فى مهمته النبيلة . .

فقال :

— إننى موقن بأن من حقى أن أدعوكم إخوانى فهاتوا أيديكم أصافحكم . .

ومددنا إليه أيدينا فصافحنا واحداً بعد الآخر وقد أخذ بيل بهذه المظاهرة فقال له مشيراً إلى ما ربحه منا منذ قليل :

— إذا كنت فى حاجة إلى نقود فإن لدى بعضها الآن فاطلب ما تريد !

وابتسم جونز وقال :

— فى الحق إننى فى حاجة إلى أربعة جنيهات أكون ممتناً لو استطعت أن تقرضنيها دون أن أسبب لك أى ارتباك . وإذ كانت تلك النقود ملكاً لنا منذ حين قريب ، فقد أجبت أنا وريد نيابة عن بيل بالقبول ، وقدم بيل المبلغ إلى الراهب فأخذه وانحنى شاكراً وانصرف .

وقد كانت مارشال فى ذلك الحين بلدة صغيرة قليلة السكان بحيث يعرف أهلوها بعضهم البعض جيد المعرفة . وقد قوبل الراهب فى أول أمره ببعض السخرية ولكنه لم يلبث فى البلدة أربعة أسابيع حتى كون

لنفسه شعباً يتتبع عظاته باهتمام زائد . وفى خامس يوم أحد بعد هبوطه مارشال كان يعظ جمهوراً لا بأس به فى ذلك الكوخ المهجور ، وكان منبره برميلا فارغاً ومقاعد المستمعين من الصناديق القديمة والخشب البالى والأحجار وما شابهها .

وفى يوم الاثنين التالى دلف إلى ردهة فندق مارشال الوحيد رجل طويل القامة عريض المنكبين يلبس سروال رعاة البقر ويتمنطق بحزام فيه مسدسان هائلان ، وقد غطى فخذيه بفراء مزركش يعلو شفته شارب أسود مفتول وكانت تلوح عليه أمارات تبعث الريبة والخوف إلى الصدور .

وذهب الرجل إلى البار توًّا ثم ضرب الخوان بمقبض مسدسه الأيمن فأقبل ويلى صاحب الحانة يسأله ما يريد بعد أن وضع فى متناول يده مسدساً كبير الحجم .

وقال الطارق الغريب :

ــ ضع مسدسك جانباً وهيا اعدد كؤوس الخمر للجميع .

وإذ سمعنا هذه العبارة اقتربنا لنرى ما الخبر ، وصاح الرجل بصاحب الحانة يقول :

ــ أجل ليشرب جميع من بالمكان على حسابى .

وغمغم ويلى يقول :

ــ الجميع . . ؟ !

ووضع الرجل يده فى جيبه فأخرج رزمة من أوراق النقد وضعها فوق الخوان وقال :

ــ هيا يا صديقى خذ ما تريد ونفذ ما أمرتك به .

وأخذ ويلى ثمن خمس وثلاثين كأساً من الويسكى وراح يجهز الكؤوس ، فلما أن صفت جميعاً أمسك الغريب كأسه ورفعها إلى فمه بيد ، وأعاد رزمة الأوراق المالية إلى جيبه بيد أخرى ، ثم قال :

— هيا اشربوا نخبي . . . اشربوا نخب هنرى داوسن . .

ولعب داوسن القمار فى حلقة الحانة فربح ربحاً ليس بالقليل إذ كان شديد البراعة فى اللعب ، ثم دعاه ويلى صاحب الحان إلى خلف البار ليفضى إليه بمسألة أهمته وشغلت باله منذ أسبوعين ، فلما أن خلا به قال له :

— إننى فى حاجة ، يا مستر داوسن ، إلى رجل يؤدى لى عملا يسيراً ، وإننى أرى فيك الكفاية والجرأة اللازمتين ، فهل تقبل أن تؤدى ما أريد قضاءه لقاء عشرين جنيهاً ؟

— وما هى هذه المهمة . . ! ؟

— لقد هبط هذه البلدة راهب لو بقى فيها للحقت بى خسارة طائلة وانتهى بى الأمر إلى إغلاق حانتى وإفلاسى ، ففى ليلة أمس ، الأحد ، لم يكن لدى فى البار سوى ستة زبائن . وقد ذهب الباقون إلى سماع عظاته .

— لقد فهمت ، وما الذى تريدنى على أن أفعله ؟!

— أريد أن تحمل هذا الراهب بعيداً عن هذه البلدة ، أريد أن تذهب على الفور إلى كوخه فتقتلعه من فراشه وتردفه على جوادك وتسرع به إلى محطة السكة الحديدية وتركبه القطار قبل أن يخف إليه واحد من أتباعه ، فهل فهمت غرضى ؟

— أجل . وهل هو قوى هذا الراهب ؟!

— إنه لا يقل قوة عنك . .

ونزع داوسن مسدسيه من مكانيهما وألقى بهما على البار وهو يقول :

— لا داعى لاستعمال هذين مع أحد مبعوثى السماء ، إننى ذاهب إليه الآن يا مستر ويلى ، . وأنتم أيها السادة من شاء منكم أن يشاهد كيف يجرى مبعوث السماء بسرعة ستين ميلا فوق الأرض فليأت معى . .

وذهب الحاضرون جميعاً فى أثره ، وقد ساءنى أن يطرد جونز من المدينة على هذا النحو ، ولكنى رأيت ألا جدوى من احتجاجى فلحقت بالجمع صامتاً لأرى النتيجة .

ولما وصلنا إلى كوخ الراهب وجدناه مظلماً فأيقنا أنه قد نام ولكن داوسن تقدم إلى الباب فرفسه بقوة وقال :

— اخرج إلينا أيها الراهب الوقور .

ولم يكن ثمة مجيب .

وعاد داوسن يرفس الباب بعنف دون مجيب فأسخطه هذا الصمت وجعله يركل الباب بقوة حتى خلعه ودلف إلى الكوخ يبحث عن الراهب صاخباً لاعناً ولكنه لم يجده فى فراشه .

وعاد داوسن إلى الحانة خائب المسعى وتبعه الرفاق آسفين على فوات فرصة للهزؤ والسخرية ، وعدت مسروراً لنجاة القس المسكين من قبضة ذلك الشرير العاتى .

وإذ رأيت نفسى بلا عمل فى صباح اليوم التالى فقد يممت شطر كوخ جونز فوجدته جالساً على درج الكوخ يقرأ ، ولكنه ألقى الكتاب من يده حينما أقبلت عليه ثم أحضر كرسيين من صنع يديه فجلسنا عليهما وسألته عن سبب الكسر الذى رأيته فى بابه ، دون أن أعلمه بأننى واقف على مسألته فقال :

— لقد كسر هذا الباب ليلة أمس إذ حضر إلى هنا سكبر آثم فى صحبة جمع من رفاقه الثملين ولما أيقنت أن شراً حفزهم إلى المجىء إلى فى تلك الساعة ، اختبأت بين الأعشاب إلى أن مضوا ، فهل تعرف سبب شخوصهم أمس إلى كوخى ؟

وقد أنبأته بحقيقة الأمر معتقداً أنه سوف يفزع لذلك الخبر ولكنه

أجابنى مبتسماً وهو يقول :

— إنك تدهشنى !! هنرى داوسن.. يريد أن نخرجنى من البلدة ؟! وبدون سلاح أيضاً ؟! هه . اسمع يا أخى ، إننى أدعوك للحضور فى يوم الأحد المقبل إلى الكنيسة لتسمع ما سوف أقوله علناً عن داوسن هذا . إننى لا أدعو إلى تعاليم الإنجيل فحسب ، بل أقاتل إمن أجلها أيضاً . إذا جاء داوسن إلى هنا مرة أخرى فسوف أؤدبه وأعلمه بالقوة كيف يحترم الدين . لا تخش علىّ يا أخى هاينز إننى رجل قوى .

أمسك جونز بحدوة حصان كانت ملقاة بجانبه فضغط عليها بيديه حتى كسرها ، وأيقنت حينذاك أنه لابد منتصر على ذلك المدعى إذا تقابلا فى عراك ذات يوم ، وما كان ذلك اليوم ببعيد .

وحدث فى مساء الجمعة حادث لا بأس من إيراده لأنه زاد فى عداوة جونز للداوسن ، فقد حدث أثناء أن كان الأخير يلعب الورق فى الحانة ويربح نقود الحاضرين شأنه فى كل مساء ، أن اتهمه لاعب يدعى كونر بالغش وادعى أن داوسن يخفى « آساً » خامساً ، وهم كونر بسحب مسدسه ولكن داوسن كان أسبق إلى إطلاق الرصاص فأصابت قلب كونر وفاضت روحه بعد قليل .

وقد برح داوسن الحانة بعد الحادث منعاً للشغب وذهب أحد أقارب القتيل يبحث عن الشريف ، وقد أوفدونى لأستدعى الراهب ليسرى عن روح الجريح قبل أن يلفظ نفسه الأخير ، فأسرعت إليه فوجدته فى فراشه ، وما كاد يرانى حتى ابتدرنى بقوله :

— من الذى أصيب ؟

فظننت أنه سمع الطلق النارى فأجبته :

— إنه فتى يدعى بيل كونر وقد طلب إلى أن أدعوك إليه فعجل بربك وإلا وصلنا بعد فوات الوقت ، أما قاتله فهو ذلك المدعو داوسن .

وذهبنا إلى الحانة بعد أن لفظ كونر روحه فعاد الراهب أدراجه ساخطاً متوعداً ، وبقينا نفكر فى إجبار داوسن على مبارحة الولاية ولكننا عدنا فرأينا أن ذلك ليس من شأننا ، وقد دفنا كونر فى اليوم التالى وكان تابوته من صنع يدى الراهب فأثر ذلك فى نفوسنا تأثيراً بليغاً .

وأقبل الشريف بعد دفن كونر بقليل وأنشأ يبحث مع رجاله عن داوسن بلا جدوى ، وقد بث عيونه وأرصاده طول النهار والليل فى طرقات المدينة وظاهرها وحول الحانة ولكنهم لما لم يعثروا على طريدتهم عادوا فى اليوم التالى وكان يوم أحد إلى مركز الولاية يائسين من إيجاده موقنين بأنه لابد أن يكون قد تخطى الحدود إلى المكسيك هارباً لن يعود .

وكانت عظة ذلك الأحد عن القتيل والمقامرة والخداع فى اللعب والخارجين على القانون وكيف أن العقاب سوف يدركهم أينما ذهبوا .

وعقب القس على ذلك بقوله : إن رجلا يدعى داوسن قد هددنى بحملى على الخروج من هذه البلدة أيها الإخوان ! وإننى أقول يا إخوانى بأنه إذا عاد هذا الرجل إلى مارشال ونازلنى وجهاً لوجه بلا سلاح فسوف أضربه « علقة » لا ينساها إلى الأبد .

على أنه لا يجدر بنا أن نتحدث هنا عن هذه الشئون الأرضية طويلا ، فلنتكلم عن أمر أكبر أهمية أريد معونتكم عليه . إذ يجب أن تكون لنا كنيسة أكبر وأحسن من هذه ، ولقد وجدت أن تكاليف أخشابها لا تزيد على ٤٠٠ جنيه فإذا اكتتبتم بهذا المبلغ اشتريت الخشب اللازم وبنيت الكنيسة بيدى .

وكان يتكلم بهيئة حملتنا جميعاً على الوقوف نعاهده على جمع المبلغ المطلوب فى يوم الأحد التالى .

لم يمض يومان حتى عاد داوسن إلى الظهور مساء فى الحانة وقد طلب

دوراً للحاضرين جميعاً ثم دعاهم بعد الشرب إلى الذهاب معه إلى كوخ الراهب ليريهم كيف يؤدبه على ما قاله عنه أثناء عظة يوم الأحد الماضى .

وقد خفت على جونز من أذى داوسن فأسرعت إلى كوخه كى أحذره فى الوقت المناسب فلم أجده فيه وإن كنت قد وجدت شمعتين موقدتين قرب النافذة ، وقد أيقنت أنه ربما ذهب إلى زيارة بعض مريديه وترك النور فى الكوخ ليهتدى إليه فى الظلام .

وأقبل داوسن بعد قليل يتبعه جمع غفير وقد ركل الباب بعنف يدعو جونز إلى قتاله يداً ليد كما وعد بذلك وهدد ، ولكنه لم يسمع مجيباً فجعل يطلق الرصاص على باب الكوخ حتى خلع القفل ثم دلف إلى الداخل يبحث عن الراهب ، فلما لم يجده عاد ورفاقه إلى الحانة .

وقد جاء جونز بعد انصرافهم فدهش لحالة كوخه ولكننى أفهمته بما حدث وأخبرته أنه من حسن حظه أنه لم يكن موجوداً لأن داوسن لو رآه لما تعفف عن قتله بالرصاص .

وتوالت الحوادث بعدئذ بسرعة غريبة وحدث فى يوم الأحد التالى أن جاء أحد مفتشى البوليس فقبض على جونز أثناء جمعه لمبلغ الأربعمائة جنيه التى وعد بها لشراء خشب الكنيسة الجديدة . .

وثارت ثائرة المصلين لهذا العمل المزرى بكرامة رجل الدين ولكن رجل الشرطة وقف يشرح لهم الأمر وبين لهم أن راهبهم الوقور ليس سوى لص ومحتال جرئ وأنه إنما ضحك على ذقونهم بادعاء الرهبنة وخدعهم باسم الغيرة على الدين . .

وجن جنون الحاضرين إذ سمعوا أن جونز ارتكب عدة جرائم قتل أيضاً فهجموا عليه واستخلصوه من بين يدى مفتش البوليس ثم شنقوه بأنفسهم وعلقوه فى إحدى الأشجار . .

وبعد أن شنق ذهبنا إلى كوخ الراهب نفتشه ، وكم كانت دهشتنا وذهولنا بالغين حينما وجدنا فى ركن أحد صناديقه ملابس رعاة البقر والمسدسين الهائلين والشارب المفتول وسائر الملابس التى كان يبدو فيها هنرى داوسن الذى لم يره واحد من سكان البلدة فى الوقت الذى كان يظهر فيه القس الجليل . . !

المزيف

أليس من المؤلم أن يكون مثل هذا الرجل الشحيح الحسيس مالكاً لمئات الألوف من الجنيهات وهو يخزنها حيث لا يستفيد منها أحد شيئاً ؟

كان إسماعيل يتكلم بكمد وهو يتحدث عن عمه قاسم بك ويشكو بخله وتقتيره لصديقه عبد الرؤوف .

وأصغى إليه عبد الرؤوف مشفقاً واكتفى بأن هز رأسه قائلا : وماذا تريد ؟ . . . إن للبخل لذة تفوق لذة التبذير .

— نعم . أعرف هذا . . ولكنك لا تعلم أن لى نصيباً كبيراً فى ثروة عمى . . ولو أنى لا أستطيع الحصول عليها . . لقد مات أبى وأنا ما زلت قاصراً فتولى عمى الوصاية على ولما بلغت رشدى وحاسبنى على أموالى لم أفهم شيئاً بل تخالصت معه وأنا أحسبه أميناً فى وصايته . . ولكننى علمت أنه اغتال من ميراثى مبالغ طائلة . . وقد تصرف بدهاء كبير حتى إنى لاأستطيع أن أثبت ما سلبنى إياه . . .

— لعلك تتهمه بما هو برىء منه ؟

— أنت لا تعرفه . . إنه على الرغم من غناه حقير النفس أدنأ من اللصوص والمجرمين ولو استطاع أن يسلبنى ما فى جيبى لما توانى لحظة واحدة .

— أو لم تحاول أن تتفاهم معه ؟

— وكيف السبيل إلى التفاهم وهو أخبث من إبليس الرجيم ؟

— وهل علمت مقدار ما اغتاله من مالك ؟

— لقد بحثت وحسبت إيراد أموالى فى المدة التى تولى فيها الوصاية . . فعلمت أنه سلبنى ما يقرب من الألف والأربعمائة من الجنيهات . ولكن لا سبيل إلى إثبات ذلك ، وليس لى إلا أن أراه يتنعم بمالى وأنا أتلمظ حنقاً وكمداً دون أن أستطيع مطالبته بدرهم واحد . . إنه يعبد المال . ويسعى إليه من كل وسيلة . . ولو كانت وسيلة منكرة غير مشروعة .

* * *

يجدر بنا قبل أن نسترسل فى الحديث أن نصف للقارئ هذين الصديقين اللذين طلعت عليهما شمس القصة وهما جالسان فى أحد مشارب القهوة فى هليو بوليس يتحدثان .

كان إسماعيل شاباً ضعيف الإرادة غير ذكى ولكنه غير غبى . مات أبوه عن ثروة طائلة ولكن عمه عرف كيف يتصرف فى مدة الوصاية فيستولى على أكبر قدر من هذه الثروة ولا يترك للوارث الشرعى غير فضلات لا تسمن ولا تغنى من جوع .

ولم يكن إسماعيل ممن يعرفون كيف يجاهدون ويصارعون فى الحياة . لذلك رضى بما قسم له واستسلم لنصيبه وكان كل ما يعمله أن يشكو تصرف عمه وسوء فعله إلى أصدقائه . . ولم يكن أولئك الأصدقاء ليهتموا بشكواه ، وكثيراً ما صارحوا إسماعيل بأن يكف عن التذمر فإن لكل إنسان من همومه ما يكفيه .

ولكن عبد الرؤوف كان صديقاً مخلصاً فهو يستمع شكوى الشاكى ويواسيه فى نكبته .

ولم يكن عبد الرؤوف بالسعيد الحال بل كان بائساً صارعته الحياة فصرعته وخلفته معدماً . وقد اشتغل فى أكثر المهن والوظائف وغامر فى مشروعات جمة فخرج منها جميعها صفر اليدين .

ولذلك كان فى اليوم الذى قابل فيه إسماعيل ثائر الأعصاب ساخطاً

متمرداً على الأقدار ، وعلى الرغم من ذلك جلس يستمع إلى شكوى صديقه وهو يصغى ويفكر .

وعلى حين فجأة طرأت بباله فكرة سريعة أوحتها إليه تلك الجملة الأخيرة التى اختتم بها إسماعيل حديثه وهى : « وأنه يعبد المال ، ويسعى إليه مستعيناً بكل وسيلة . ولو كانت وسيلة منكرة غير مشروعة » .

صمت عبد الرؤوف هنيهة وكأنما جالت بذهنه خطط وأفكار مبهمة مضطربة ما لبثت أن صفت واستقرت فى صورة واضحة فبرقت عيناه وأشرق وجهه وقال وهو يقبض على يد إسماعيل فجأة : « اسمع يا إسماعيل ماذا تقول فيمن يأتيك بالألف والأربعمائة جنيه التى سلبك عمك إياها ؟! »

ونظر إليه إسماعيل باهتاً وقال : « إنك تحلم بالمستحيل » .

ولكن عبد الرؤوف قال لصديقه : « لا أريد منك إلا عشرة جنيهات تكون طعماً أتصيد به مالك الضائع فهل فى وسعك أن تأتينى بها ؟ » .

وقال إسماعيل : « أجل . ولكن . . . » .

فضحك عبد الرؤوف وقال : « ولكنك تخشى أن تضيع هذه الجنيهات العشرة . . . أليس كذلك ؟ لنفرض أنها ضاعت . . فلا بأس عليك إذا كانت خسائرك ١٤٠٠ جنيه وعشرة جنيهات ؟! وكل ما أريده أن تكون بين هذه الجنيهات العشرة ورقة مالية ذات خمسة جنيهات جديدة لم تمسها يد ولم يعبث بها التداول » .

* * *

مرت على هذه المقابلة بضعة أسابيع حدثت فيها أمور غير عادية فى منزل قاسم بك .

وكان قاسم بك يسكن شقة أرضية فى منزل يمتلكه بشبرا . . ومع أن هذا المنزل شامخ البناء عديد الطبقات فإنه لم يرض إلا أن يقيم فى الشقة

الأرضية التى يأنف الخدم من سكناها وذلك كيلا يضيع عليه إيجار إحدى شقق المنزل .

ولم يكن ينقص حياة قاسم بك إلا أمر واحد .. ذلك هو « بدرون » أرضى فى المنزل مرت به سنون طويلة دون أن يسكنه أحد . . وكان هذا البدرون مظلماً رطباً لا يرضى أحد بسكناه . ولذلك كان قاسم بك يشتد حزناً وكمداً كلما مر شهر جديد وهو محروم من إيجار البدرون .

وأخيراً أقبلت الأيام على قاسم بك وتقدم فتى يطلب استئجار البدرون فاستأجره بمبلغ زهيد .

ومرت أيام عديدة وبدأ قاسم بك يرتاب فى أمر الساكن الجديد . فقد كان يراه يدخل مسكنه ويغلق بابه ويبقى فيه يوماً بطوله دون أن يخرج منه وإذا خرج خرج متلصصاً متسللا كأنه يخشى أن يكون هناك من يترقب خروجه أو يترصد له .

وكلما جاء من الخارج جاء يتلفت خلفه فى ذعر كأنه يحسب حساب عيون وجواسيس تقتفى أثره .

أهاجت هذه الحركات فضول قاسم بك فترقب دخول الساكن الجديد ولبث هنيهة ثم سار إلى باب مسكنه ونظر من ثقب الباب فلم ير شيئاً .

وأصغى فسمع صوت آلة صغيرة تدور وتدوى بانتظام فزاد فضوله وما لبث أن طرق الباب .

وسكت صوت الآلة ومرت فترة سكون وأعاد قاسم بك الطرق ففتح الساكن الباب وهو شاحب الوجه مضطرب الأعضاء وقال فى فزع : « ماذا تريد ؟ »

وزادت ريبة قاسم بك فدخل المسكن وفى أثره الساكن . ونظر حوله فرأى أوراقاً وألواناً وريشاً وأوانى فيها سوائل ورأى على المائدة آلة ميكانيكية تشبه الآلة الكاتبة .

ولم يفهم سر ما يرى وسأل الساكن : « ما هذا الصوت الذى يصدر من عندك ؟ »

وتلعثم الفتى و وقف يحول بين قاسم بك و بين الآلة الميكانيكية ولم يحر جواباً .

وازداد فضول قاسم بك وقال : « ويخيل إلى أن وراء الأكمة ما وراءها . . ما هذا الذى تحاول إخفاءه ؟ »

ثم تقدم إلى الأمام فصاح به الفتى : « فى عرضك يا قاسم بك . . لا تفضحنى !! »

و زادت دهشة قاسم بك واقترب من الآلة فرأى ورقة بارزة منها .

وجذبها فإذا بها ورقة مالية ذات خمسة جنيهات جديدة كأنها خارجة من دار الضرب فى تلك اللحظة .

وقلبها بين يديه فلم يقم لديه شك فى أنها ورقة مزيفة . ولكنها كانت متقنة التزييف لا فرق بينها و بين الورق الحقيقى .

وسقط الساكن على قدميه وأخذ يستعطف قاسم بك أن لا يبلغ أمره للقضاء وأن يعفو عنه .

ولكن قاسم بك أخذ يهدده ويتوعده والفتى يبكى و يشكو له الفقر و يخبره بأنه لم يعمد إلى التزييف إلا بعد أن ضاقت به الدنيا بما رحبت . . وأنه لن يؤذى أحداً بهذا التزييف لأنه اكتشف طريقة جديدة يزيف بها الأوراق المالية فلا يدرك سر تزييفها أحد حتى صراف البنك الأهلى نفسه . وما ذلك إلا لأنه اطلع على سر صنع الورق والحبر والألوان التى تصنع منها الأوراق المالية .

وكان الفتى يستعطف ويتحدث وقاسم بك يقلب الورقة بين يديه فيزيد دهشة لدقة صنعها وعدم اختلافها عن الأوراق الحقيقية .

وقال الفتى : « إننى فقير بائس وكل ما أستطيع عمله أن أخرج

كل أسبوع ورقة مثل هذه وهى لن تؤثر شيئاً فى أعمال البنك الأهلى فليس فى عملى أى جرم أو أى أذى يلحق بالهيئة الاجتماعية »

وذهل قاسم بك طويلا وقال : « وإذا لم تكن فقيراً هل كان فى وسعك أن تصنع كثيراً من هذه الأوراق ؟ » .

وتنهد الفتى وقال : « لا تسخر بى يا سيدى . . إن صنع الأوراق فن مثل باقى الفنون وقد حذقته دن سواى من سكان العالم ولكنى قانع بحالتى ولو أن فى استطاعتى أن أحصل على ملايين الجنيهات » .

فسأله قاسم بك فى لهفة :

— « وكيف ذلك ؟ »

فأجابه : « لو كنت صاحب ثروة لجئت بماكينات كبيرة وأدوات كاملة فكان فى وسعى أن أصنع فى كل يوم خمسين ورقة من هذا النوع » .

وأخذ قاسم بك يضرب أخماساً فى أسداس ويحسب . ويدمدم .

« مائتان وخمسون جنيهاً فى اليوم أى سبعة آلاف وخمسمائة جنيه فى الشهر أى ٩٠ ألف جنيه فى السنة !! » .

ودار رأس قاسم بك وقد ذهل عندما علم أن فى العالم من يستطيع أن يصنع فى السنة تسعين ألف جنيه فلا تمر عشر سنوات حتى يكون لديه مليون جنيه تقريباً !! . .

وخطرت له خواطر رهيبة ، مضطربة ، متناقضة ، وكان الفتى لا يزال يستعطف ويرجو .

ومرت ساعات طويلة . . خرج بعدها قاسم بك وأمر الفتى أن ينتظره بعد أن وعده بأنه لن يبلغ أمره للبوليس وبعد أن هدده بأنه « يوديه فى داهية » إذا حاول الفرار .

وذهب قاسم بك إلى دكان مجاور وطلب صرف الورقة فقلبها صاحب

الدكان بين يديه ثم أودعها صندوقه وأعطى قاسم بك خمس ورقات من فئة الجنيه .

ولكن قاسم بك طلب صرفها فضة فلم يجد الرجل عنده فضة كافية فاستردها قاسم وسار إلى أحد الصيارفة .

وعرض عليه الورقة يسأله عن حقيقتها قائلا إن بعض الناس يطلب صرفها وهو يخشى أن تكون مزيفة .

ولكن الصراف قلبها وفحصها ثم أعادها إليه قائلا : « إنها ورقة صحيحة لا ريب فيها » .

وتجرأ قاسم بك فسار توًّا إلى البنك الأهلى وأعطى الورقة للصراف طالباً صرفها .

وقد عمل ترتيبه على أن يحفظ لنفسه خط الرجعة فإذا اتهمه الصراف بأنها مزيفة قال فى الحال إنه أخذها من ساكن فى منزله فخصم منها قيمة الإيجار وأعطاه باقيها .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل فقد فحصها الصراف ثم صرفها له .

وأراد أن يزداد تأكداً فقال للصراف مازحاً : « لقد أخذت هذه الورقة من أحد السكان وخشيت أن تكون مزيفة ولذلك جئت أصرفها من البنك » .

وأعاد الصراف فحصها ثم ضحك وقال : « إنها ورقة صحيحة ويا ليت عندى آلافاً منها !! » .

* * *

عاد قاسم بك إلى المنزل وقد سبح فى عالم التصورات ورأى نفسه من أصحاب الملايين وعشرات الملايين .

واختلى بالساكن ساعات طويلة قر بعدها القرار على أن يدفع له

قاسم بك ١٤٠٠ جنيه يشترى بها الماكينات والأدوات اللازمة لإنشاء مصنع كبير يخرج فى كل يوم مائة ورقة من فئة الخمسة الجنيهات . على أن يأخذ الفتى عشرين فى المائة من الإيراد والباقى يأخذه قاسم بك.

ومر أسبوع طويل تمت فيه المفاوضات والصفقة . وفى ختام الأسبوع خرج الفتى من المنزل وفى جيبه مبلغ الألف والأربعمائة جنيه ! !

* * *

وفى القهوة نفسها تقابل إسماعيل وعبد الرؤوف . وقال عبد الرؤوف:

« إذا جئتك بالألف والأربعمائة جنيه فكم تدفع لى منها ؟ »

فأجابه إسماعيل وهو يحسب صديقه يمزح : « النصف » .

فوضع عبد الرؤوف يده فى جيبه قائلا : « إذن فهيا نقتسم ».

وزاغت عينا إسماعيل وشحب لونه وكاد يفقد رشده عندما أخرج عبد الرؤوف رزماً ضخمة من الأوراق المالية وأخذ يقتسمها معه ! !

أما قاسم بك فلا يزال ينتظر عودة الساكن من أوربا ومعه الأدوات والجهازات والماكينات ! !

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

فى سلسلة **اقرأ**

المزيد فى مثل هذا الموضوع

● أحلام شهرزاد	للدكتور طه حسين
● شاعر ملك	للأستاذ على الجارم
● سيدة القصور	للأستاذ على الجارم
● قطر الندى	للأستاذ محمد سعيد العريان
● فارس بنى حمدان	للأستاذ على الجارم
● عنترة بن شداد	للأستاذ محمد فريد أبو حديد
● الشاعر الطموح	للأستاذ على الجارم
● خاتمة المطاف	للأستاذ على الجارم
● شجرة الدر	للأستاذ محمد سعيد العريان
● مرح الوليد	للأستاذ على الجارم
● عذراء الأندلس	للأستاذ أحمد الصاوى محمد
● بنت يزيد	للأستاذ سامى الكيالى
● قصر الرشيد	للأستاذ طه الحاجرى

● ليلى العفيفة	للأستاذ عادل الغضبان
● بنت قسطنطين	للأستاذ محمد سعيد العريان
● عيون معصوبة	للأستاذ محمود كامل
● قلوب معذبة	للأستاذ قدرى قلعجى
● دماء وطين	للأستاذ يحيى حقى
● أنات الساقية	للأستاذ عبد الله القرشى
● عودة المفقود	للأستاذ حسن رشاد
● قلب عذراء	للأستاذ إبراهيم المصرى
● نفوس تتكلم	للسيدة وداد سكاكينى
● صنيعة الشيطان	للأستاذ حسن رشاد
● عروسة على الرف	للسيدة صوفى عبد الله
● من يوميات فتاة عصرية	للأستاذ حسين شوقى
● الجامحة	للسيدة أمينة السعيد

دار المعارف بمصر

تقدم للمؤلف الأستاذ **طاهر الطناحى**

- **معارك السيف والقلم**

قصص مشوقة جذابة وصور ناطقة حية تجلو حياة الدولة العباسية فى عصرها الذهبى ، نسجها الكاتب من حقائق التاريخ الاجتماعى والسياسى فى أسلوب رشيق بعيد عن الاستطراد التاريخى الممل ، وهى توضح معالم ذلك العصر بما تميز به من أخلاق وعادات وحياة اجتماعية وفنية . إنها قصص مشاهير القادة والسياسيين وكبار الأدباء الذين عاشوا فى هذا العصر الزاهى الممتلئ بالأحداث الخطيرة ، فى السياسة والقيادة والحرب والاجتماع .

١٦٤ صفحة . قطع متوسط — الثمن ٣٠ قرشاً

وفى سلسلة (اقرأ) :

- **أمير قصر الذهب**

هذا أمير عباسى زهد فى الملك حيناً ثم طمع فيه حيناً آخر ، ولكنه لم يظفر به. وإذا كانت فاتته زعامة الملك فلم تفته زعامة الفن ، فقد جود فى الموسيقى وابتدع فيها مذهباً نسب إليه ... إن قصة إبراهيم بن المهدى هى قصة عصر ذهبى من عصور المسلمين . .

الثمن ٥ قروش

خذ المعارف من دار المعارف

دار المعارف بمصر

تقدم للناشئة والشباب

مجموعة (أولادنا)

- قصص عالمية تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة .
- ازدانت بصفاء لغتها وقوة أسلوبها وأناقة رسومها وإخراجها .

صدر منها ٢٣ كتاباً :

١ – عمرون شاه
٢ – مملكة السحر
٣ – كريم الدين البغدادى
٤ – آلة الزمان
٥ – الأمير والفقير
٦ – كتاب الأدغال
٧ – بينوكيو
٨ – نبوءة المنجم
٩ – روبن هود
١٠ – دون كيشوت
١١ – أيفنهو
١٢ – جزيرة الكنز
١٣ – كنوز الملك سليمان
١٤ – سجين زندا
١٥ – الزنبقة السوداء
١٦ – مون فليت
١٧ – مقبرة الأفيال
١٨ – الربان بلود
١٩ – تيودورا
٢٠ – أوليفر تويست
٢١ – داڤيد كوبرفيلد
٢٢ – فى مهب الريح
٢٣ – الفخ الذهبى

ثمن الكتاب الواحد ١٥ قرشاً

خذ المعارف من دار المعارف

٢٢٥١